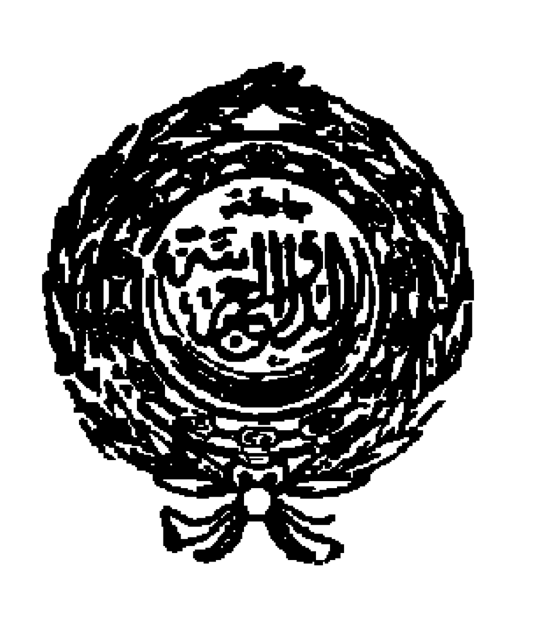


المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم
معهد البحوث والدراسات العربية

الإسرائيليات في الغزو الفكري

الدكتورة عائشة عبد الرحمن



المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم
معهد البحوث والدراسات العربية

الإسرائيليات في الغزو الفكري

الدكتورة عائشة عبد الرحمن

١٩٧٥

الإسرائيليات
في الغزو الفكري

محـــــاضرات

ألقتها : د · عائشة عبـد الرحمن (بنت الشاطىء) .
أستاذ الدراسات القرآنية العليا
جامعة القرويين : المغرب

دليـــــل

تقـــديم

من الموقع الفكرى أطل على الأبعـاد المتراميـة لابتـلاء أمتى بطـاغوت بنى اسرائيل ، فأرى جـذور المحنة ناشبة فى أخفى أعماق وجـودنا ، موغلة فى مسارب معقدة متشابكة ، لا يكاد النظر يلمح منفذها الى أرض الميعـاد ، أو يميز الروافد التى امدتبذرتها الخبيثة بالرى والزاد حتى آتت اكلها السام٠

ويتشابه الأمر علينا فى دروبها الخفية الملتوية : فتبـدو حينـا مسلكا للاستعمار ، وأحيانا مدخلا للصليبية ٠ ثم تختلط بها موجة الالحاد فتزيدها غموضا وتعقيدا ، حتى تلتقى شتى الدروب مفضية الى تل أبيب ٠

كما تتشابه علينا الذرائع فى أقنعتها الموهمة وأزيائها الخادعة : فتبدو أحيانا وجها لخدمة التاريخ ، وأخرى لتطور الدراسة العلمية ومحدث التحقيق المنهجى ، وثالثة فى زى العصرية والتقدمية ، ورابعة فى صورة اليقظة من خدر الأفيون ٠٠٠

وتحمل مرة صليب القديس ، وأخرى مفتاح العلم والحضارة ، وثالثـة كلمة السر الفاتحة لكنوز الدنيا والآخرة ، ودليل الطريق الى الفردوس المفقود أو الموعود ٠

وكل الطرق توصل الى تل أبيب ٠

●●●

عام النكبة ، ١٩٦٧ ، لبثت أحدق فى الأفق المعتم ، أحاول أن أستوضح الرؤية ، وعلى الأفق ضباب متكاثف يحول دون نفاذ البصر ، ونحن فى غشية من دوار الصدمة ، لا نفهم منطق الهزيمة ولا نعى ابعادها ٠

وقتئذ ، انحصرت رؤيتى فى البعد التاريخى لمعركة الانسانية على امتداد الزمان والمكان مع اعداء البشرية ، تأخذ جولتها هذه المرة على أرض الرسالات ومهد الحضارة • وتفرض حتمية السنن أن تكون الجولة الحاسمة ، اذ يستحيل أن يمحق الباطل الحق ويغلب الشر الخير ويمسخ الظلام النور •

لان هذا يعنى تشويه الحياة وتدميرها •

فاما أن تنتصر الحياة بسحق الشر والباطل •

واما أن تسالمه وتؤمن بقاءه ، فيسلمها الى دمار ماحق محتوم •

وعربدة الطاغوت الصهيونى على أرض الرسالات ومهد الحضارة ، ضد طبيعة الأشياء • ومن ضلال الوهم أن نتصور امكان تعايش سلمى بيننا وبين أعداء البشر •• ساحة السراب وحدها ، هى التى تتسع لمثل هذا الوهم•

●●●

تلك كانت رؤيتى للموقف اثر النكبة • عرضتها فى كتابى (أعداء البشر) (١) وكانى كنت أتقى بها الانسحاق بصدمة الهزيمة •

يوما بعد يوم ، تغيرت رؤيتى لما بدا لى فى دوار الصدمة موقفا طارئا لن يلبث أن يزول ، وخطأ عارضا لن يبقى دون تصحيح •

يوما بعد يوم ، رسخ العدو قواعده فيما اغتصب من أرضنا ، وصار تامين وجوده المغتصب ، هو القضية التى تشغل المجتمع الدولى وتتعلق بها المساعى والمفاوضات •

وعلى مدى السنين السبع الطوال ، حاولت الرؤية من جديد ، فروعنى وأنا اطل من الموقع الفكرى على ابعاد محنتنا بالطاغوت الصهيونى ، اننى

---

(١) نشره (المجلس الأعلى للشئون الاسلامية) بالقاهرة ، فى طبعتين ، سنة ١٩٦٨ •

حيثما أرجعت البصر ألفيت مخالب الاسرائيليات ناشبة فى وجودنا ، وأدركت أن الاجتياح اليهودى لوطننا ليس فى حساب القوم حدثا طارئا أو عارضا مرحليا ، وانما هو حصاد مشؤوم لبذور خبيثة سهرت الأجيال من يهود على زرعها فى أرضنا وتعهدتها بالرى والانضاج •

أو هو حركة مسيرة طويلة فى أعماق وجودنا التاريخى ، عبر مسارات ملتوية خفية حجبت عن مجال رؤيتنا حتى أفضت الى مخرجها فى قلب وطننا •

وفى رؤيتى اليوم لأحداث المرحلة وواقع التاريخ ، لا تنفصل محنتنا بالسرطان الصهيونى عن جراثيمه الضارية فى خلايا كياننا من قبل أن يظهر الداء ، ولا هى منقطعة الصلة بأسبابها فى الغزو الفكرى الذى اجتاح ديارنا يمزق وحدتنا ويحاول أن يعد للنكبة جيلا مضيع الهوية موزع الولاء والانتماء، بتفريغه من عناصر شخصيته القومية •• عقيدة ولسانا وتراثا وتاريخا •

وقد كشفت حرب (رمضان : أكتوبر ١٩٧٣) عن جوهر أمتنا الأصيل ، ركام التخذيل والاحباط ، وجلت عن معدنها الحر غواشى الصدأ ، وأشهدت الدنيا أن لهذه الأمة من نور البصيرة ورسوخ الايمان ومذخور الحيوية ، ما تقاوم به عوادى المرض ، وتعصى على التضليل والتخدير •

وأوقن مع ذلك ، أن ما بيننا وبين بنى اسرائيل ليس بالذى يحسمه نصر عسكرى أو اتفاق سلام ، بل الذى بيننا وبين هذا الطاغوت صراع وجود ومصير ، تحكمه قوانين الحياة والموت ، فوق مساعى الوسطاء وجهود المجتمع الدولى فى سبيل سلام يكفل لاسرائيل حدودا آمنة فيما اغتصبت من بلادنا •

ومن واقع التاريخ الذى وعى جولات المعركة بين الانسانية وأعداء البشر ، تبدو المعركة لذوى البصر منا ممتدة فى غيب المستقبل ، صراعا بين الانسان والطاغوت •

قصارى جهد جيلنا فيما يحمل من عبء هذه الجولة الشرسة المعقدة ، أن نتفانى فى الجهاد ونظل ما عشنا فى رباط وتعبئة ومجاهدة ٠

ثم نترك الجولات بعدها للأجيال الخالفة من أبنائنا يحملون عبئها تكليفا مفروضا وميراثا محتوما وأمانة صعبة ٠

من أجل هذا ، أتابع الجهاد فى الموقع الفكرى بالكلمة أهديها الى أجيال من أبناء أمتى العريقة الخالدة ، يرفضون الهزيمة والعار ، ويتحدون ذرائع اليأس والاحباط ، والكفر والضياع ٠

عائشة عبد الرحمن

الرباط : المغرب

ربيع الأول ١٣٩٤ هـ

مـــــايو ١٩٧٤ م

مدخـــــل :

((هـــذا الكتـــاب))

« يريدون ليطفئـوا نور الله بأفواههم
والله متم نوره ولو كره الكافرون » ٠

ينبغى أن أعترف بأننى ترددت طويلا فى نشر هـذه الدراسة ، اتهاما لمنطقى فيها ! وقدرت أننى مازلت واقعة تحت الاحساس الباهظ بوطأة الكابوس اللعين الجاثم على وجودنا ، يطاردنى كالشبح فأرى كل الطرق موصلة الى تل أبيب ٠

ولم أستبعد أن يعوزنى ، مع هـذا الاحساس ، اتزان المنطق وصحة الرؤية ٠٠

ثم حدث أن أفضيت بهذا ، فى أحد مجالسنا الفكرية العـامرة بالمغرب الأقصى ، فما أصبح النهـار التـالى حتى سعى الى أحد الزملاء المغـاربة الأصدقاء ، فوضع بين يدى كتاب (أحجار على رقعة الشطرنج) للأميرال المسيحى « وليم غاى كار » (١) ٠

وترك لى السيد الزميل أن أقرأ هـذا الكتاب ، قبل أن أتهم منطق رؤيتى لأبعاد النكبة ٠

وروعنى حقا ما قرأت ، فما تصورت من قبل وأنا أوغل فى الكشف عن ذرائع الاسرائيليات فى الغزو الفكرى ٠ أن الشيطان نفسه يمكن أن يصل الى ذلك المدى الرهيب من خبث الشر ومكر الحيلة ونكاء الدهاء ، ولا خطر لى على بال ، أن عصـابات اليهود المشردين فى أقصـاء الأرض معلونين أينمـا ثقفوا ، كانوا وراء ما نكبت به البشرية فى العصر الحديث من أهوال الحروب وعواصف الفتن والفوضى والالحاد والانحلال ، وأنهم ينفـذون مؤامرة رهيبة للسيطرة على العـالم كله ، واطفـاء نور الحق والخير والجمـال فى ضمير الانسـان ٠٠٠

---

(١) فى ترجمته العربية للسيد سعيد جزائرلى : طبع بيروت سنة ١٩٧٠

وقرأت الكتاب مرة ثانية بتدبر وامعان ، فاذا هو فى جملته مجموعة من الوثائق بدأت تتجمع للمؤلف ، منذ اختياره فى سنة ١٩١٧ عضوا فى (المكتب الصهيونى الخـاص ، الملحق بالدكتور وايزمـان) بلندن • كان قبل الحاقه بالمكتب ، قد أطال التفكير فى كنه السر الخفى الذى يحول دون سلام البشر • وفى محاولته الكشف عن هذا السر ، قرأ فيمـا قرأ : كتاب (اليد الخبيثـة) للكولونيل الأمريكى « هـ • لين » نشره فى سنة ١٩٠٧ تحذيرا لقومه من الشر الصهيونى •

وكتاب (الخطر اليهودى) الذى نشر فيه « سرجى نيلوس » سنة ١٩٠١ ، وثائق التقطها من مخدع غانية بباريس ، كان أحد كبار اليهود نسيها فيه اثر عودته من اجتماع لرؤساء محافل الشرق الأكبر •

وهى الوثائق التى نشرها « فيكتـور مارسدون » سـنة ١٩٢١ بعنوان (بروتوكولات حكماء صهيون) بعـد عودته من موسكو ، حيث كان وقتـذاك مراسلا لجريدة (مورننج بوست •) وهناك أتيح له العثور على نسخة مـن كتاب « سرجى نيلوس » الذى ظل مجهولا الى ذلك الحين •

وتجمعت لدى « وليم كار » علىمدى سنين ، حقائق وأحداث تبدومنفصلة متباعدة لا يمكن الربط بينها وتنسيقها •

حتى دفعت به الظروف الى مرصد الأحداث فى وكر « وايزمان » بلندن ، الذى استطاع برسالة منه الى قائد عمليـات الجيش الانجليـزى فى الحرب العالمية الأولى ـ الجنرال ماك دوناف ـ أن يحمل قيادة الجيش على اعفـاء ستة من الشبان الأكفاء من الخـدمة العسكرية فى الجبهـة « لأسباب تتعلق بالمصلحة العليـا » ولم تكن هـذه المصلحة العليـا ، سوى تأسيس « المكتب الصهيونى الخاص ، الملحق بالدكتور وايزمان) •

[وكانت الحكومة البريطانية تعد هذه المنظمة حليفة وصديقة ، مما جعل المكتب يتمتع بسلطة هائلة • منهـا اعطاء جوازات سفر لعمـلاء

الصهيونية ، وتمويلهم وتأمين سفرهم وانتقالهم • وبنفوذ المكتب، كانت الخطوة الأولى الرئيسية لحكومة « لويد جورج ، بلفور ، تشرشل » اعلانها رسميا : أن سياسة بريطانيا ستقوم على دعم مخطط روتشيلد ، لانشاء وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين] (١) •

من هذا الوكر ، لبث « وليام غاى كار » يرصد الأحداث ، ومضى يتتبع الخيوط فى تشابكها المعقد ، حتى استكمل فى سنة ١٩٤٤ دراسة الوثائق التى أتيحت له ، فعكف على تنسيقها وهو يظن أنها كافية للكشف عن أبعاد المؤامرة الصهيونية ضد البشرية •

واستغرقت الدراسة والتنسيق ثمانى سنين أخرى ، حدث فى أواخرها أن وضعت الظروف بين يديه وثيقة خطيرة • وصلت الى مخابرات البحرية الكندية •

الوثيقة كانت تقريرا سريا للمؤتمر الاستثنائى لحاخامى أوروبا ، الذى عقد فى « بودابست » فى اليوم الثانى عشر من كانون الثانى (يناير) ١٩٥٢ • وجاء فى التقرير ما ترجمته من نص الخطاب السرى للحاخام الأكبر « ايمانويل رابينوفيتش » فى المؤتمر :

[تحية لكم يا أبنائى ،

لقد استدعيتم الى هذا الاجتماع الخاص ، لاطلاعكم على الخطوط الرئيسية لمنهاجنا الجديد ، وهو المنهاج المتعلق بالحرب المقبلة التى كان مخططنا لها ، كما تعلمون ، يقضى بارجائها عشرين عاما ريثما نتمكن خلالها من تدعيم المكاسب التى حصلنا

---

(١) احجار على رقعة الشطرنج : ص ١٨٢

عليها نتيجة الحرب العالمية الثانية • بيد أن تعليمات جديدة صدرت الينا ، تقضى بتقصير هذه المهلة :

[يجب أن أبلغكم أن الهدف الذى مازلنا نعمل لأجله منذ ثلاثة آلاف سنة ، قد أصبح فى متناول يدنا الآن •• ويحتم علينا دنو الثمرة أخيرا ، أن نضاعف الجهد ونكرس له كل ما أوتينا من عبقرية وخبرة • وأستطيع أن أؤكد لكم الآن ، أنه لن تمر أعوام قلائل حتى يسترد شعبنا المكان الأول الذى هو حقه المغتصب منه منذ أجيال طويلة ، فتعود تلك الأوضاع الى طبيعتها ويصبح كل يهودى سيدا ، وكل جوييم عبدا (تصفيق حاد) •

[سأعطيكم الآن فكرة عن التعليمات المتعلقة بالحرب المقبلة :

انكم تذكرون نجاح المنهاج الذى طبقناه من عام ١٩٣٠ ، وكلل بالنجاح الكامل : فقد تمكنت حملة دعايتنا الشاملة ، من اثارة الحقد فى ألمانيا ضد الغرب وضد السامية ، ثم اثارة الحقد فى الغرب ضد الشعب الألمانى بسبب العداء للسامية •

هذا هو الخط الرئيسى لمنهاجنا الحالى الذى نقوم بتنفيذه الآن : فنحن نثير حملة حقد عنيفة فى الشرق ضد الغرب ، وفى الغرب ضد الشرق • وسوف نتسلط على الأمم التى تقف على الحياد فنجبرها على الانضمام الى هذا المعسكر أو ذاك ولن ندع أحدا يقف فى وجهنا اذا أراد التخفيف من حدة الصراع •

[سيكون الهدف الأول لهذا النهج : نشر الروح العسكرية والقتالية فى أمريكا • وسنعمل على الصاق تهمة العداء للسامية بالشعب الروسى ذاته ، كما فعلنا سابقا بالنسبة الى الشعب الألمانى : وسندعم بالمال والنفوذ ، المنظمات التى تتبنى الدفاع عن السامية فى أمريكا بصورة خاصة •

[أما الهـدف النهائى لهذه الخطة ، فهو بالطبع الحـرب العالمية الثالثة التى ستفوق فى آثارها وضراوة دمارها ، الحروب السابقة مجتمعة · وسنعمل على ابقـاء « اسرائيل » حيـادية فى فى هذه الحروب حتى تنجو من ويلاتها ، ولكى تصبح بعدها مقرا للجان التحكيم والرقابة التى سوف يعهـد اليهـا الأشراف على مجموع قضايا الشعوب الباقية بعد الحرب · ستكون هذه الحرب الثالثة هى معركتنا الأخيرة فى صراعنا التاريخى ضد الجوييم · وسنكشف عن هويتنا الحقيقية ونسفر بوجهنا للعالم ·

[قد نحتاج فى سبيل هدفنا النهائى الى **تكرار** نفس العملية المؤلمة التى قمنا بها أيام هتلر : أى أننا قد ندبر نحن أنفسنا وقوع بعض حوادث الاضطهاد ضد مجموعات أو أفراد من شعبنا · أو بتعبير آخـر : سوف **نضحى** ببعض أبنـــاء شعبنا فى أحـداث سنثيرها ونوجههـا نحن من وراء ستار ، حتى نحصل بذلك على الحجج الكافية لاستدرار عطف ومؤازرة شعوب أوروبا وأمريكا من ناحية ، **ولتبرير** المحاكمات التى سنجريها بعد الحرب منناحية أخرى ، لاعدام العسكريين المتحاربين كما فعلنا فى « محاكمـات نورمبرج » ·

[وقد تكون التضحية ببضعة آلاف من أفراد شعبنا ــ نعمل نحن على ابادتهم لالصاق التهمة بمن نشك من زعماء الجوييم ــ تضحية جسيمة ، لكن يجب ألا نقيم وزنا لأية تضحية فى سـبيل هدفنا النهائى : السيطرة على العالم ·

[انكم ترون النصر النهـائى يتوهج كالنور أمام أعينكم · وسوف تعودون الى مناطقكم بعد هذا المؤتمر لكى تباشروا العمل دون هوادة ، حتي يحين اليوم الذى ستكشف فيه « اسرائيل » عن

مهمتها الحقيقية ، وهى كونهـا مقر النور الذى سيضىء وحـده العالم ، ومقر مجمع النورانيين ٠] (١)

●●●

بين كل حركة وأخرى للأحجار على رقعة الشطرنج ، كنت أقف لأتساءل فى دهشة : هل هذا معقول ؟

وفى بالى ، وأنا أردد هـذا التسـاؤل ، كل ما قرأت مـن تاريخ جولات المعركة بين أعداء البشر والجوييم ، وما جاء فيهم على لسـان الرسل عليهم السلام ، وكتب مؤرخو الحضارة والأديان والأخلاق والأجناس ، عن لعنـة بنى اسرائيل التى يصرون على أن يشوهوا بها وجه الحياة ٠

وذكرت فيما ذكرت ، أن الأستاذ المؤرخ « محمد عبد الله عنان » نشر فينا قبل النكبة بسنين ، كتابه (تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة : من القرون الوسطى الى العصر الحديث) فما كدنا نلقى بالا الى الخيط الرئيسى فى تلك الشبكة الرهيبة المعقدة من نسج اليـد اليهودية الخبيثة ، والذى فى كتاب « الأستاذ عنان » يشبه أن يكون مدخلا لكتاب « الأميرال وليم غاى كار » الذى استطاع أن يتتبع خيوط الشبكة فى صبر واستقصاء ، فربط النتـائج بالمقدمات ورد الأحداث الى أسبابها ، وقدم الوثائق والأدلة ٠

ومازلت أقول : ان الذى كشف عنه من وثائق ، عن اليد الخبيثة المحركة للأحجار على رقعة الشطرنج ، يتجاوز حدود ادراكنا البشرى ومنطقنا العقلى ، ويتحدى الانسانية لتناضل عن بقائها ومصيرها ، وتحمى رصيدعمرهاالطويل من القيم والمثل والمبادىء ، أن يمسخه الـذين لا تصح الأوضاع فى منطقتهم الا بأن يسيطروا على العالم ليجعلوا من كل يهودى سيدا ومن كل جوييم عبدا ٠

---

(١) بنصه ، من (أحجار على رقعة الشطرنج) ١٩٨ : ٢٠٢

فليس كتابى اذن ، بالذى يقاس الى كتاب الأحجار ، أو يبلغ من الكشف لبصيرة الانسان وضميره ، عن خبث الطاغوت اليهودى ، ما تبلغه نصوص البروتوكولات لحكماء صهيون ..

رؤيتى هنا ، ليست من الشمول بحيث تستوعب المجال العالمى للمؤامرة الصهيونية ، بل هى مركزة على أمتى فيما نشب من الاسرائيليات فى وجودها الفكرى ، وصولا الى الموقع الذى يتقرر فيه مصير أمتنا فى صراع البقاء ...

●●●

وكـان اتجـاهى ، بادىء الأمر ، أن يكون المبحـث الأول من هـذه المحاضرات ، فيما دسته الصهيونية على الفكر السياسى المعاصر ، من مقولات رائجة ، أخذت فينـا صفة البديهيات المسلمة ، فحجبت عن الرؤية العـامة ، أبعاد الموقف المعقد لمحنة أمتنا باسرائيل .

غير أنى آثرت أن أترك هذا لخبراء الفكر السياسى ، ادراكا منى لقصور فهمى له على مستوى الخبرة والتخصص . ولم أستبعد أن يكونوا على علم بما غاب عن الفهم العام المتاح لمثلى ، من تفسير هذه المقولات الرائجة ، ودور الصهيونية فى توجيهها .

ثم انى لا أرى أنكم فى حاجة الى وعى نفوذ اليهودية العالمية ، عـلى السياسة الدوليـة المعـاصرة . ومن ثم أكتفى بأن ألفت الى وثائق من تاريخ العصر الحديث ، كانت الى ماض قريب محجوبة عن المجال العام لرؤية اليـد الخبيثة وهى تحرك الأحداث على المسرح الدولى ، وتشق الدروب الى أرض الميعاد .

فى كتاب (اليهودية العالمية) اعترف « صامويل لاندمان » أن مكتب وايزمان فى لندن ، كان مركز التخطيط للسياسة الدولية ابان الحرب العالمية الأولى ، وتوجيه المباحثات التى تقرر بعدها مصير عالم ما بعد الحرب .

[وثابت أن اللجنة السياسية للمنظمة الصهيونية فى لندن بدأت عملها اثر استلام « لويد جورج » الحكم ، وكان اجتماعها الأول فى بيت « الدكتور موسى جاسنر » بلندن ، فى اليوم السابع من شباط (فبراير) سنة ١٩١٧ ٠ وقد أبلغت محاضر هذا الاجتماع بالشفرة الى فرع المنظمة الصهيونية فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وأصبح الفرع الأمريكى يتدخل منذئذ فى الشئون الداخلية ويوجه سياسة الحكومة فيما يتعلق بمجال اختصاصه ٠ وبعد أن تم الاتفاق فى اجتماع المنظمة الصهيونية بلندن ، بين السير مارك سايكس وحاييم وايزمان وناحوم سوكولوف ، تقرر ارسال رسالة بالشفرة الى القاضى الأمريكى « ل ٠ هبرانديز » ، رئيس لجنة الطوارىء للصهيونية فى نيويورك ، لاخباره بأن الحكومة البريطانية توافق على مساعدة اليهود على استعادة (؟!) فلسطين ، مقابل تحالف اليهودية العالمية مع بريطانيا ، ووعدها بخلق تيار قوى يدعم فكرة انضمام الولايات المتحدة الى الحرب بجانب بريطانيا ، ويلقب الموقف الأمريكى المحايد رأسا على عقب] (١)

وفى كتاب (عبر ثلاثين عاما) الح مؤلفه « ويكهام ستيد ، رئيس تحرير التايمز » بصورة خاصة ، على تقرير سيطرة سادة المال اليهود على القضايا العالمية ، وأنهم محركو الأحداث فيها أثناء مؤتمر السلام بجنيف سنة ١٩١٩ :

[فوراء أقطاب المؤتمر ، كان « يعقوب شف » ممثل المرابين العالميين المعروفين بمجموعة واربورغ ، الذين يهدفون الى تأمين هيمنة اليهود على عالم ما بعد الحرب بصفة عامة ، وألمانيا بصفة خاصة] ٠

---

(١) النصوص هنا وفيما يلى ، منقولة من : أحجار على رقعة الشطرنج ، ص ١٨٤ وما بعدها ٠

وفى كتاب « جنيف نحو السلام » سجل السفير الفرنسى فى انجلترا آنذاك : « الكونت دى سان أوكلير » خبر البرقيةالتى تلقاها « الرئيس ويلسن » فى ألفى كلمة ، من « يعقوب يشيف » يوم ٢٨ آذار (مارس) سنة ١٩١٩ ، برأى من يمثلهم ، من مرابى واربورغ ـ فى القضايا العالمية الخمس :

المسألة الفلسطينية ، والتعويضات الألمانية ، ومنطقة السار ، وسيلسيا العليا ، وممر دانزج ٠

وقال السفير دى سان أوكلير :

[ان النصوص التى تضمنتها معاهدة فرساى فيما يتعلق بهذه القضايا الخمس ، هى من وضع يعقوب شيف وأبناء جلدته]

وبثت الصهيونية خلاياها فى أوساط عصبة الأمم منذ نشأتها بعد معاهدة فرساى [حتى استطاعت أن تجعلها آلة مسيرة بأيدى مجموعة المرابين العالميين اليهود ٠ وهذا ما أذن ـ فيما بعد ـ للصهيونى المعروف « ناحوم سوكولوف » فى التصريح به ، فأعلن على وجه المفاخرة : أن عصبة الأمم فكرة يهودية]

وقد نقل عنه هذا التصريح نصا « الكولونيل أ٠هـ٠لين » فى كتابه (اليد الخبيثة) ٠

وفى المؤتمر الصهيونى العام (بودابست سنة ١٩١٩) أعلن « حاييم وايزمان » فى خطابه الى المؤتمر :

[ان منظمتنا ستلعب دورها فى تنظيم العالم الجديد بعد الحرب ٠ اننا نحن الذين خلقنا عصبة الأمم ، وسوف نتابع السير وراء هذه المنظمة الدولية المرشدة ٠ أما أهدافنا ومهمتنا ، فهى محددة سلفا]

يشير بذلك الى ما قررته (بروتوكولات حكماء صهيون) من :

[فرض السيطرة اليهودية على ما يبقى من العالم بعد الكارثة الشاملة

التى يجرى الاعداد لها] ، قبل قرن ونحـو نصف قرن من الحرب العـالمية . الأولى ، ومعاهدة فرساى ووعد بلفور ٠

●●●

ذلك ومثله ، من نفاذ اليهودية العـالمية الى مراكز القيـادة والتوجيه للسياسة الدولية ، غاب عن المجال العام للرؤية ، ريثما تمت مرحلة التحضير لاغتصاب فلسطين ، وآن الأوان للاعلان عن قيام مملكة بنى اسرائيل ٠

وأكتفى بهـذا . اتقاء التورط فيمـا لا علم لى به من خفـايا السـياسة وأساليبها ، ولست من أهلها الخبراء ، وعسى أن أكون أدنى الى صواب ، فى رؤيتى للاسرائيليات فى المجال التاريخى والغزو الثقافى والموقع الدينى ٠

●●●

المبحث الثـــــانى :

الاسرائيليات فى المجـــال التـــاريخى

تتنادى من حيـن الى آخر ، بالدعوة الى اعادة النظر فى تاريخناالمدون ، لتحريره مما شابه منأخطاء التدليس والتحريف، أو التشويه والبتر • ولعل فيمـا أقدمه هنا عن الاسرائيليات فى فهمنا لتـاريخنا ، ما يؤكـد أن الأوان قد حان لتتآزر جهود الدارسين عـلى تصـحيح الفهم لوجـودنا التـــاريخى الـمدينى والسياسى والفكرى والأدبى ، كل فى مجال تخصصه •

في سنة ١٩٦٨ م : ١٣٨٨ هـ ، نشرت كلية أصول الدين ببغداد ، طبعة ثالثة من كتاب الأستاذ العميد « السيد مرتضى العسكرى » عن (عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى (*) حلقة من دراساته النقدية المقارنة الجادة فى تاريخنا الاسلامى المدون ٠

وتختص هذه الحلقة ، بأحداث الفتنة الكبرى التى هاجها مقتل ثالث الخلفاء الراشدين « عثمان بن عفان » رضى الله عنه ، وما سبقها من مؤثرات ونذر ، وحف بها من ملابسات ، ونجم عنها من آثار بعيدة المدى فى حركة التاريخ الاسلامى ٠

ولا نعلم كتابا فى تاريخ الاسلام ، للقدامى أو المحدثين ، من عرب أو مستشرقين ، عرض للفتنة الكبرى دون أن يشير الى ما كان لعبد الله بن سبأ من دور خطير فى اثارة تلك الفتنة ، ثم فى الايغال بها الى أبعادها المترامية ٠

و « ابن سبأ » فى أمهات المصادر التاريخية يهودى من صنعاء اليمن ، أظهر الاسلام فى عهد الخليفة عثمان رضى الله عنه ، مع ظهور بوادر القلق العام من سياسة الولاة فى الأقطار الاسلامية ، والغضب لانحرافها عن نهج الخليفتين « أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب » رضى الله عنهما ، وتواترت الاخبار فى كتب التاريخ ، بأن « عبد الله بن سبأ » تنقل فى الحواضر الاسلامية ، بالعراق والشام ومصر ، يذيع فى الناس قالته : « ان للنبى صلى الله عليه وسلم رجعة ، كالمسيح عليه السلام ٠ وان لكل نبى وصيا ٠ والامام على بن أبى طالب هو خاتم الأوصياء لخاتم النبيين عليهم السلام » ٠

(*) طبع دار الكتب فى بيروت ٠ والطبعة الأولى من الكتاب نشرت فى (النجف الأشرف) سنة ١٣٧٥ هـ ، والثانية نشرتها دار الكتاب العربى ، بالقاهرة ، سنة ١٣٨١ هـ ٠

وجذبت الدعوة عددا من الغاضبين والناقمين ، والتف حوله عصبة من المغامرين جعلهم دعاة له ، يجوسون خلال الديار متظاهرين بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومستغلين مكانة « الامام على » فى قلوب المسلمين ، لاثارة الفتنة والدعوة الى تصحيح الأوضاع برد الخلافة المغتصبة الى صاحب الحق الشرعى فيها ، الامام الوصى · فكان أن اندلعت النار بمصرع « عثمان رضى الله عنه » يوم الدار ، ثم لم تخمد بعـدها أبدا ، والسبئية ساهرون على الهابهـا بوقود الثأر للخليفة الشهيد ، ثم ثارات القتلى ومصارع الشهداء ، فى الجمل وصفين ، وفى كربلاء والحرة ···

ومن خلل النقع المثار ، بثوا فى المجتمع الاسلامى نحل الرجعةوالتناسخ والمثنوية ، والقول بأن لكلمات القرآن ظاهرا يعرفه العـامة وفيهم الصـحابة والفقهاء ، وباطنا لا يعلم سره الا الأئمة · ونادوا باباحة النساء والأموال ، على الشيوع ! ممـا ظهر أثره فى تمرد الموالى بخراسـان واسـقاط الدولة الأمـوية ، ثم فى ثورة الزنج والقرامطة بالعصر العبـاسى ، وفشو الزندقة والالحاد ، وانتعاش النحل الدخيلة على العقيدة الاسلامية ·

وتنقلت هذه الأخبار عن أفاعيـل السبئية ، من عصر المدونات الأولى للتاريخ الاسلامى الى العصر الحديث ، يرددها المؤرخون مسلمين ومستشرقين، ويلقون مزيدا من الأضواء على نفاذ السبئية فى تاريخ الاسلام ، وايغالها فى توجيه الحركات السرية والثورية ، والدعوات الهدامة والنحل الفاسدة ، وكأن « عبد الله بن سبأ » يتناسخ فى الأجيال من الفوضويين والمخربين ، وأعـداء هذه الأمة ·

الجديد فى كتاب الأستاذ العميد « السيد مرتضى العسكرى » أنه رفض التسليم بمرويات يرددهـا المؤرخون جيلا بعد جيل ، دون تردد أو توقف ، أو فحص لهذه المرويات ونقد أسانيدها ·

وهـذا هو ما تصـدى له السـيد الأستاذ ، فى محـاولته الجليـلة التى استوعبت شتى المرويات عن « عبد الله بن سبأ » ودوره فى الفتنة الكبرى وما

نجم عنها من آثار بعيدة المدى نافذة الأثر · واتجهت محـاولته الى الفحص النقدى لكل ما روى عن السبئية ، وامعان النظر فى مسيرتها بتاريخنا المدون ، متتبعا لها من مناشئها الأولى فيما رواه الامام الطبرى ، بكتابه العمدة الامام ، نقلا عن كتابين فى (الفتوح والردة ، والجمل ومسيرة عائشة وعلى) ألفهما فى القرن الثانى للهجرة ، « عمر بن سيف التميمى » ·

وأخذت مرويات « سيف » طريقها الى كتب المؤرخين الأعلام ، كـابن عساكر (ت سنة ٥٧١ هـ) فى كتابه الكبير (تاريخ مدينة دمشق) والذهبى فى كتابه العلم (تاريخ الاسلام) فما تصور مؤرخ بعدهم ، أنها مظنة اتهام ·

حتى وقف عندها « الأستاذ السيد مرتضى العسكرى » فوصل به البحث الدقيق المقارن ، والنقد الفاحص الثاقب ، الى أن « الأسطورة السبئية » قـد اختلقت صحابة وهميين ، واخترعت أسانيد موضوعة ، وزيفت أخبارا جازت على المؤرخين فيما نقلوا من رواية « سيف بن عمر التميمى » ·

وليس هاهنا مجال العرض الموضوعى المفصل لكتاب الأستاذ السـيد العسـكرى ، والنظر النقـدى فى أدلته وأحـكامه ، أو تتبـع آراء الدارسين المعاصرين فيه (١) ، اذ مهما يختلف موقفهم منه ، فالـذى لا ريب فيه هو أن الكتاب يؤكد حاجتنا الى اعادة النظر فى تاريخنا المدون ، ويلفت الى شوائب مقحمة على مرويات رددتها الأجيـال من المؤرخين ، ورسخهـا التواتر حتى صارت من المسلمات التى لا يتعلق بها أى شك ·

الذى يعنينا هنا من قصة السبئية ــ على فرض أسطوريتها ــ هو منطق رواجها لدى المؤرخين الثقات ، وتفسير اقتناعهم بصدق المرويات عنها · وهذا

---

(١) فى مقدمة الطبعة الثالثة لكتاب « مقالات تأييد » أولها ماكتبه الأستاذ « الشيخ محمد جواد مغنية » من علماء لبنان ·
وملحق به ، رسالة للزميل « الدكتور احسان عباس » ناقش فيهـا السيد المؤلف ، مع رد فضيلته على هذه المناقشة ·

ما لم يظهر بوضوح فى دراسة الأستاذ السيد العسكرى ، ولم يتعرض له الذين نظروا فى كتابه فأيدوه ، أو ترددوا فى التسليم بأسطورية السبئية ٠

وأراها شاهدة على احساس مرهف ومبكر ، باسرائيليات « اليهود الذين تظاهروا بالاسلام ودخلوا فيه نفاقا يكيدون له » بحيث لم يتردد مؤرخو الاسلام الأعلام ، أمثال الطبرى وابن عساكر والذهبى ، فى الأخذ بمرويات « سيف بن عمر التميمى » المشحونة باسرائيليات السبئية ٠ فما كانوا ليستبعدوا ، على ما عرفوا من عداوة اليهود للاسلام وخبث كيدهم له ، أن يأتى يهودى من صنعاء ، يتظاهر بالاسلام ليكيد له ، وينبث فى المسلمين يوقد بينهم نار الفتنة ، وينشر فيهم ذرائع الفوضى والتخريب ٠

ولا أجد تفسيرا لتسليم مأرخينا بمنكرات السبئية وما لقيت الأمة من شرهم ، سوى صدق الرؤية التاريخية لقديم عهد الأمة بمكايد أفاعى اليهود ، وما نفثوا فى المجتمع الاسلامى من سموم ٠

فان يكن « عبد الله بن سبأ » أسطورة ، فان واقع وجودنا التاريخى عرف ألوفا منه بأسماء وأقنعة شتى ، وأزمان متفاوتة وأماكن مختلفة ٠

كلهم عبد الله بن سبأ ٠

من بنى قريظة ويهود خيبر فى عصر المبعث ، الى « موسى بن ميمون » بالأندلس ، و « ابن مشعل » بالمغرب ، فى العصور الوسطى ٠

الى « كوهين » بسورية ، فى عصرنا الحاضر ! ولقيت الأمة من اسرائيلياتهم شرا ونكرا ٠

●●●

وهذا مثل فحسب ، يشهد لحاجتنا الى وضوح الرؤية التاريخية ، وأوطىء به للحديث عن الاسرائيليات فى تاريخنا الطويل ٠٠٠

تاريخنا الاسلامى يبدأ من ليلة القدر ٠

والحديث عن الاسرائيليات فى تاريخ العصر الاسلامى الأول ، يأتى فى موضعه من المبحث الخاص بالموقع الدينى ٠ أما عن تاريخ الدولة الاسلامية بعد الفتوح الكبرى ، فأرى من العسير أن أعرض هنا لما نشب فيه من اسرائيليات ، اذ يحتاج الأمر فيها الى اضاءة كاشفة لعصور ماضية ، حجبت عن بصيرة أبنائنا اليوم ، وألقت بها أحداث عصرنا فى منطقة الظل ، فلا سبيل الى التحدث اليهم عما أقحم على تاريخ أمتنا من مقولات بنى اسرائيل ، الا مع العرض الكاشف لهذا التاريخ الماضى ٠

حسبنا هنا أن نمعن النظر فى تاريخنا الحديث من موجهاته المباشرة فى القرن الماضى ٠

●●●

وأقرب ما يبدو لنا منه ، أن كتب التاريخ المدرسية قدمت الى أجيال منا تاريخ أمتهم الحديث ، مشوها ومبتورا ٠ فخرجوا من المدارس ، ويخرجون ، لم يعرفوا دور بنى اسرائيل فى اسقاط الخلافة الاسلامية وتمزيق أقطارها تركة منهوبة لأولياء اليهود من المستعمرين ٠

الأجيال منا لم تقرأ فى كتاب مدرسى للتاريخ ، قصة الصفقة اللئيمة ، التى عرضها عملاء اليهود على « السلطان عبد الحميد الثانى » الذى شاءت الظروف أن يلى الخلافة من سنة ١٨٧٦ الى سنة ١٩٠٩ م ، وهى المرحلة التى قررت فيها اليهودية العالمية الظهور بخريطة مملكة بنى اسرائيل من النيل الى الفرات ، ثم تحريك السياسة الدولية على رقعة الشطرنج فى الاتجاه باليهود الى أرض الميعاد ٠

فى سنة ١٨٩٦ ، رسم « هرتزل » خريطتهم فى مؤتمر بازل ٠ وهى داخلة فى حدود أقطار الدول العثمانية ٠ فلتسقط اذن هذه الدولة ، ولتكن الخطوة الاولى صوب فلسطين ٠

وعلى مرأى منا ومسمع ، مضى أقطاب اليهود الى أرض فلسطين يحرثونها لاسرائيل ، ويأخذون طريقهم اليها عبر الثغور العربية ، وربما أقاموا بيننا على الرحب والسعة ، ونحن فى غفلة عنهم نمر مر الكرام بما كانت صحفنا تنشره بحفاوة ، من أبناء ذلك الحرث ! فأنقل منها ما نشره « الاهرام » فى اليوم الثالث من يناير سنة ١٨٩٩ ، بنص ألفاظه :

[وصل الى الثغر ــ الاسكندرية ــ حضرة « البارون ادمون دى روتشيلد » وهو قادم من سوريا ، حيث ساح مدة تفقد فى خلالها محلات الاسرائيليين فى فلسطين محلة محلة ، وكثير منها يخص حضرة البارون · وقد علمنا أنه سيقضى فى القطر ــ المصرى ــ بضعة أيام ، ثم يسافر الى باريس] ·

ودفعت أحداث ضاغطة · بالدولة العثمانية الى حروب متتابعة فى روسيا وفى البلقان ، أنهكت واستنزفت خزانتها وأثقلتها بالديون ، وعندئذ تقدم عملاء اليهود فى سنة ١٩١٨ بالصفقة : يدفعون الى الخزانة العامة خمسين مليونا من الجنيهات قرضا سهلا مريحا لسداد ما عليها من الديون ، ويقدمون خمسة ملايين هدية الى الخزانة الخاصة للسلطان « عبد الحميد الثانى » نظير سماحه بوطن لليهود فى فلسطين ·

واعتذر رحمه الله عن رفضه للصفقة ، بأن فلسطين ليست من أملاكه الخاصة ليساوم عليها فى صفقة بيع وشراء ، فكان هذا الرفض ايذانا باسقاطه ، ثم القضاء من بعده على الخلافة الاسلامية بما تمثل من وحدة اللواء الذى ظل يجمع أقطار المشرق والمغرب من القرن الاول للهجرة ، ويقود جهاد شعوبها فى صد موجات الغزو الصليبى واحباط مؤامرات الاستعمار ·

تواطأت الصهيونية وأولياؤها الاستعماريون مع (جماعة الدونمة) التركية على عزل « السلطان عبد الحميد الثانى » بقرار من مجلس المبعوثان فى سنة ١٩٠٩ ، حمله اليه ثلاثة من الاعضاء أحدهم يهودى ، هو الذى تولى

تسليمه الى السلطان عبد الحميد ، وأمره بامضائه . فما ملك رحمه الله الا أن قال وهو يوقع على قرار العزل :

« أما وجد القوم غيرك من يحمل هذا القرار الى ؟ »

وتاهت كلمته ، بل تاه خبر الصفقة كلها في ضجيج الاحداث التيتلاحقت سراعا آخذا بعضها بأذيال بعض :

فى سنة ١٩١٤ منت بريطنيا العظمى على مصر ، قلب الوطن العربى والدولة العثمانية ، بالخلاص من نير الاحتلال التركى ، واعلان الحماية البريطانية عليها .

فى سنة ١٩١٦ قضت معاهدة (سايكس - بيكو) بتوزيع تركة الدولة العثمانية ، الرجل المريض ، على المستعمرين ورثة ثأر الصليبية وأولياء اليهود . وتم هذا التوزيع قبل اعلان وفاة الرجل المريض بنحو سبع سنين !

فى اليوم الثانى من نوفمبر سنة ١٩١٧ ، أذاعت وكالات الانباء فى أنحاء الدنيا ، نص رسالة بعث بها من لندن « اللورد أرثر بلفور ، اليهودى » وزير خارجية بريطانيا ، الى المليونير اليهودى « روتشيلد » :

[ان حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف الى تأسيس وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين . وستبذل أفضل مساعيها لتسهيل تحقيق هذه الغاية ، على أن يفهم أنه لن يسمح بأى اجراء يلحق الضرر بالحقوق المدنية والدينية التى تتمتع بها المجتمعات غير اليهودية القائمة فى فلسطين (كذا !) أو بالمركز السياسى الذى يتمتع به اليهود فى البلدان الاخرى] .

وعاش « عبد الحميد الثانى » سنة بعد « وعد بلفور » الذى أعطىاليهود ما أباه عليهم خليفة المسلمين ، فتقاضاه اليهود عرشه ، ثمنا لما رفض أن يبيعه اياهم بملايين الجنيهات !

توفى رحمه الله سنة ١٩١٨ بمنفاه فى احدى قرى أزمير ، التى نقل اليها من سجنه الاول فى « سالونيك » بلدة مصطفى كمال ٠٠٠

●●●

وآن أن يعلن موت الرجل المريض ـ دولة الخلافة ـ الذى انتهبت تركته من سبع سنين :

فى التاسع والعشرين من أكتوبر سنة ١٩٢٣ ، أعلن « مصطفى كمال » قيام « جمهورية تركيا » ٠

وبعد أربعة أشهر ، من على تركيا بتحريرها من عبء الخلافة الاسلامية، فأعلن الغاءها فى مارس سنة ١٩٢٤ ٠

وتجاوبت آفاق وطننا العربى بالهتاف للبطل المحرر الذى وضع النهـاية الحاسمة لدولة الخلافة الاسلامية ، وجدد شباب (تركيا الفتاة) بالانسلاخ من شرقيتها الآسيوية العجوز ، ونبذ كتابتها العربية البدوية ٠

ودخلت كلمة « الرجل المريض » فى معجم تاريخنا السياسى ، دون أن تثير فينا حس وعى بدلالتها الخطرة ، كيف آلت شعوب أمتنا الى أن تكون تركة لرجل مريض ؟ وان كانت تركة ، فكيف آلت الى ميراث ينتهبه غير أهله وذويه ؟

والتقط مؤرخو الادب قصائد جمهـرة من الشـعراء الـعرب فى رجم السلطنة العثمانية والتمثيل بجثة الرجل المريض ، والتغنى بفجر الحرية بعد ليل الاحتلال التركى والاستبداد العثمانى ، ودخلت قصائدهم الغراء فى كتب الادب المدرسى ، مع نصوص الادب القومى المقـررة على أبنـاء الامة ، زادا لوجدانهم الوطنى ٠

دون أن يرتبط شيء من هذا فى عقولهم وضمائرهم بخبر الصفقة اليهودية، أو يلفتهم الى أن اسقاط الدولة العثمانية كان آخر العهد بالخلافة الاسلامية ٠

وطويت مآثر ماضيات للدولة التى شهدها التاريخ تحمل لواء الاسلام عزيزا منتصرا الى قلب أوروبا ، وتقرع أبواب « فيينـا » كبرى عواصمهـا وقتذاك ، ليشهد بعدها شعوب وطننا تركة منهوبة لورثة فريدريك بارباروس ، وفيليب أوجست ، وريتشارد قلب الاسد ، ولويس التاسع الأسير القديس ...

ومن ورائهم جميعا عصابات اليهود ، سدنة خزائن المـال فى أوروبا ، والقابضون على الخيوط المحركة لقادة الصليبية والاستعمار .

ولا يبقى من أرض التركة شـبر واحد ، ملكا خالصـا حرا لأصـحابه الشرعيين ، ورثة الرجل المريض ..

البلاغ عن نهاية دولة الخلافة ، فى مارس ١٩٢٣ ، لابد أن تسبقه مهلة اعداد وتحضير ، يسلط فيها على هذا الرجل المريض من أعراض المرض ، ما تحس به شعوب الدولة أزمة الاحتضار وقسوة وطأته .

وفى تلك المهـلة ، راح الولاة الاتراك ـ فى نخـوة عصـبيتهم وبلاهة اقتناعهم بتفوق عنصرهم على العرب ـ يحـكمون الولايات العثمـانية حكم السـيد المتعجرف ، ويرهقـون شعوبها بفحش الاقطاع والبطش والسخرة ، ويطفئون فى أمصارها منارات العلم والمدنية ، فأثاروا فى أقطـار الخـلافة حركة التمرد والغضب والتعصب للعروبة ، رد فعل لاسـتبداد الولاة الترك وصلفهم الاحمق وعجرفتهم العنصرية البلهاء .

وتولى الاستعمار الهاب غضبنا وتعصبنا ، فسعت الينـا رسل الغرب بوثائق لعلماء الاستشراق تشهد للعرب بأنهم كانوا فى العصر الوسيط سادة الدنيا وقادة الحضارة ورواد العلم والمدنية ، وتعترف لهم فىتواضع ، بالفضل كله فيما وصلت اليه أوروبا الحديثة من تقدم علمى وتفوق حضارى .

فكان أن سرت فى الاقطار العربية نخـوة العروبة التى شهد بفضلها الاعداء ، وبهرتنا الاضواء الساطعة من كتب الفرنجة فى (حضارة العرب) التى تألقت فى الآفاق من أقصى المشرق الآسيوى الى أقصى المغرب الافريقى ، وأنارت للغرب الاوروبى ظلمات عصوره الوسطى .

وفى غفلة منا ، سلب الاسلام حقه التاريخى فى هذه الحضارة التى شاركت فيها شعوب أمته ، عربية وغير عربية ، من الصين والهند وفارس فى الشرق الآسيوى ، الى الاندلس على حافة بحر الظلمات .

ريثما ننسى فى نخوة اعتزازنا بالعروبة ، هذا اللواء الذى جمع شمل شعوبنا من مشرق ومغرب لمدى اثنى عشر قرنا ، أمة واحدة .

وعندئذ يطوون تلك الصفحات من أمجاد العروبة وينسخون كل ماكتبوا عن عطاء عبقريتها . ويزينون لنا الانسلاخ من ميراث بداوتها فينا ، على ما سنرى بعد قليل ...

●●●

كان سقوط الدولة العثمانية انتصارا للثورة العربية التى ارتوت بدماء الضحايا ، وايذانا بفجر الحرية الذى بزغ والاخطبوط الاستعمارى قد أنشب مخالبه فى التركة ، فمزق الشمال الافريقى والشرق الاوسط مستعمرات منهوبة، وفصل مناطق الاحتلال البريطانى ، بمنطقة الشام عازلة بين العراق ومصر والسودان ، كما فصل مناطق الاحتلال الفرنسى بمنطقتة انجليزية وأخرى ايطالية . عازلتين بين سورية ولبنان ، وتونس والجزائر .

وانفردت فلسطين بوضعها تحت الانتداب البريطانى ، ريثما آن الاوان فقدمت هدية الى بنى اسرائيل ، بجرة قلم « لورد أرثر بلفور » الوزير اليهودى الانجليزى ...

فى ظاهر الامر، أن العملية كلها كانت لحساب هؤلاء المستعمرين الذين انتهبوا أقطار دولة الخلافة .

وفى الواقع التاريخى ، كانت المؤامرة الاستعمارية لحساب بنى اسرائيل .

فلنقرأ شهادة الوثائق ...

كتب « وليم غاى كار » وهو من شهود المرحلة :

[لا ريب أن الاحداث التى تعاقبت على المسرح العالمى فى

تلك الفترة ، مخالفة لكل منطق وعرف انسانى ٠ وعلى رأسهـا قضية اقتسام النفوذ الاستعمارى فى العـالم العربى، والقضية الفلسطينية بوجه خاص ٠

وثابت أن الاجتماع الاول الـذى عقدته اللجنة الصهيونية بلندن فى السابع من شباط (فبراير) سنة ١٩١٧ ، كان بعداستلام « لويد جورج » الحكم ، أحد الثالوث الذى تكفل بتحقيق مآرب الصهيونية _ الآخران فى الثالوث هما : أرثر بلفور وونســتون تشرشل ٠

ونترك الوصف الدقيق لهذا الاجتماع ، للكاتب « ل٠فراى » نقلا عن كتابه (مياه تتدفق على الشرق) ص ٥٥ ، قال :

[عقد الاجتماع الرسمى الاول للجنة السياسية الصهيونية يوم سابع شباط سنة ١٩١٧ ، فىمنزل اليهودى «د٠ موسى غاسنر» بلندن ٠ وقد حضره _ اللورد روتشيلد : رئيس الفرع الانجليزى لمؤسسة دى روتشيلد ٠

_ جيمس دى روتشيلد : ابن أدموند دى روتشيلد ، رئيس الفرع الفرنسى ومؤسس مستعمرات روتشيلد فى فلســطين ، وأهمهـــا مستعمرة ريشون لوريون ٠

السير مارك سايكس : ممثل بريطانيا فى اتفـاقية (سايكس _ بيكو) سنة ١٩١٦ ، لتوزيع تركة الرجل المريض ٠

_ السير هربرت صامويل : الذى تقرر أن يكون أول مندوب سام لبريطانيا ، بعـد أن **يتحقق عزل فلســطين** عن أقطـــار الدولة العثمانية ، ووضعها تحت الانتداب البريطـانى ، وتكون مهمـة

صاموئيل : **تنظيم الهجـرة الصهيونية الى فلسـطين واعدادها للاستيطان اليهودى !**

ـ هربرت بنويتش : الذى تقرر اختياره لمنصب النائب العـام فى فلسطين ـ بعد وضعهـا تحت الانتـداب **ليشرف على الجهـــاز** القضائى والقانونى ، فى مرحلة **التحضير للاستيطان اليهودى** ٠

ـ حاييم وايزمان : الرأس الاكبر للصهيونية ٠

ـ هارى ساشتر : عضو مكتب وايزمان فى لندن ٠

ـ ناحوم سوكولوف : المشرف على أجهزة الدعاية ٠
ومؤلف : تاريخ الصهيونية ٠

[وكان الموضوع الرئيسى فى جدول أعمال هذا الاجتماع : مناقشة المنهاج الذى سيستخدم كقاعدة للمفاوضات الرسمية ـ الدولية فى فرســاى ـ التى ستقرر مصير فلســطين وأرمينيــة والعراق ومملكة الحجاز ، وسائر أقطار الشرق الادنى بصورة عامة] (١) ٠

وبعد أن نقل « وليم كار » من اعترافات « صـــاموئيل لاندمان » ـ التى نشرها فيما بعد فى كتابه : اليهودية العالمية ـ خبر الرسالة التى تقرر ارسالها بالشفرة الى فرع المنظمة الصهيونية فى نيويورك لتوجيه السياسة الامريكية بمقتضى المخطط اليهودى المرسوم ، قال :

[وأذكر بأن الخطوة الاولى الرئيسية لحـكومة الثالوث : « لويد جــورج ، بلفور ، تشرشل » كانت اعـلان رئيس الوزراء رسميا ، أن سياسة بريطانيـا ستقوم على دعم مخطط روتشيلد لانشاء وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين] (١)

---

(١) بنصه ، من (أحجار على رقعة الشطرنج) ص ١٨٢ : ١٨٥

من قصور الرؤية ، أن نقف باسقاط الدولة العثمانية عند ذريعتها المباشرة فى الصفقة اليهودية ، فلا تعطى تفسيرا لتواطؤ ساسة أوروبا مع اليهود ، ثم تسليم هؤلاء بحق الاستعمار فى انتهاب تركة الرجل المريض ، تحركا الى أرض الميعاد ·

المؤرخون الاوروبيون ، ربطوا بين هذا التواطؤ والثأر الصليبى · فما غفر ورثة الثأر للعثمانيين قط ، أن تلقوا لواء الخلافة بعد سقوطها فى بغداد ، وجعلوا من القسطنطينية ـ عاصمة امبراطورية الروم المسيحية ـ مقرا للخلافة الاسلامية · أو بنص عبارة المؤرخ الفرنسى « جوستاف لوبون » (١) :

[فباسم القرآن ، حل الهلال محل الصليب فى القسطنطينية التى كانت عاصمة الروم · فارتعدت فرائص العالم النصرانى فرقا من ذلك] ·

هى اذن جولة صليبية جديدة ، تزيف شعار المسيحية وتجعل من رسالة « العالم النصرانى » استعباد الشعوب الاسلامية ، باسم المسيح عليه السلام·

ومن قبل زيف الصليبيون شعار النبى الذى بشر بالسلام قبل الاسلام بنحو ستة قرون ، فلم تغفر « أوروبة النصرانية » (١) ·

[أن وصل مد الفتوح الاسلامية من الهند الى المحيط الاطلسى · وخفقت راية النبى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أسبانية التى هى احدى الممالك النصرانية الكبرى فى أوروبة] ·

---

(١) من الترجمة العربية للاستاذ عادل زعيتر ، لكتاب (حضارة العرب) ص ١٧٧ ، الطبعة الثانية ، دار المعارف بالقاهرة ·

وباسم الصليب ، حاربوا شعوبا دخلت فى الاسلام طواعية ، لم يكرهها أحـد على الدخول فيـه ، ووجدت فيه ملاذا من وطأة الاسـتعمار الرومانى ومحنة الاضطهاد المذهبى والاكراه فى الدين ·

وتتابعت على بلاد الاسلام الحملات الصليبية التى عبأتها أوروباومولها يهودها ، فارتدت مقهورة ·

[أدرك الصليبيون بعـد خيبة الحملة الثامنة ، أنهم أعجز من أن يقهروا المسـلمين · فرجع جيشهم عن فلسـطين خاسـئا مدحورا ، وظلت الراية الاسلامية تخفق فوقها] ·

●●●

لكن نصارى أسبانيا استطاعوا أن يقضوا على دولة الاسـلام هناك ، بعد عمر حافل طويل ، امتد ثمانية قرون · فى معركة ضارية ، بدأت باستيلاء « الاذفونش القشتالى » على طليطلة ، وانتهت باستيلاء « فرديناند » سـنة ١٤٩٢ م على غرناطة ، آخر معقل للمسلمين هناك ·

وبدأت مذابح الثأر تحصد المسلمين حصـدا لم تبق منهم فى أسـبانيا على أحـد ···

وكان هذا كافيا ليشفى غليل الصليبية ، لولا سدنة المال اليهود الذين كانوا يمدون أبصارهم الى الشرق الاسلامى كله ، وفيه شعوب لم يحدث قط أن دانت بالنصرانية التى اختارتها « اليد الخبيثة » قناعا لموجة استعمارية ، تحـرث أرض الله لمن يدعون أنهم شعب الله المختـار ، بطرق وصفهـا مؤرخ أوروبى من شهود العصر : [منظمة مخيفـة هادئة سـاحقة عاصرة ممتصة لا تبقى ولا تذر] بنص الترجمة العربية لعبارة « جوستاف لوبون » ·

فبعـد ثلاث سنوات فحسب من سقوط الاندلس ، كانت سفينة « فاسكو داجاما » تمخر عباب المحيط الاطلسى لتشق طريقا الى الشرق الاسلامى فى حركة التفاف ماكرة ، مدخلا للاستعمار الذى قص الجناح الشرقى من ديار

الاسـلام وأوغـل فى الشرق الاقصى يستنزف موارد القـارة الآسيوية حتى المجاعة والموت ، ويصبها فى خزائن التجار والمرابين من يهود أوروبا ٠

ومن بداية الثلث الاول للقرن التاسع عشر ، كان الفك الآخر للوحش يطبق على الجزائر فى الجناح الغربى للدولة الاسلامية ٠

ثم قبل مغيب القرن التاسع عشر ، كانت أنيـابه تنهش فى كيان مصر قلب العالم الاسلامى · باجتياح الجيش الانجليزى ثغور الكنانة سنة ١٨٨٢ ، فكان هذا بمثابة اعلان عن أزمة احتضار دولة الخـلافة المهيضة الجنـاحين المصابة فى القلب ، وايذانا بقرب نهاية ذلك الرجل المريض ٠

الاحتـلال الفرنسى للجزائر ، كان يحمـل فى ظـاهره على المطـامع الاستعمارية لدولة أوروبية كبيرة ، تريد لتنافس بريطانيا العظمى فى السباق على مناطق السيطرة والنفـوذ ، مزودة بأقرب ميراثها من أمجـاد الثـورة الفرنسية وعظمة نابليون بونابرت ٠

ولحساب يهود فرنسـا فى الواقع ، كان اجتيـاح « المعمرين » لارض الجزائر وقبضتهم على كل مواردها الاقتصادية ٠ وقد تركوا لورثة نابليون مظاهر السيادة وزهو السلطة ، أو كما قال المؤرخ الفرنسى « ستيفان جزيل » فى مقدمة كتابه عن تاريخ ومؤرخى الجزائر :

[ان التاريخ يحدد لنا واجباتنا أيضا بالنسبة الى الجزائر، وهى تتمثل فى : ارادتنا المصممة على أن نكون أسيادا فى كـل مكان ، والى الابد !]

اليهود كانوا كذلك وراء العملية الرهيبة لاحتلال مصر قبل ربع قرن من اتفاقية (سايكس ـ بيكو) :

فتحت بيوتهم المالية بفرنسا فمولت الدعاية لمشروع حفر قناة السويس ، وأنفقت بسخاء على جهود المهندس « فردينان ديلسبس » لحمل « سعيد » والى مصر على الاذن فى حفر القناة بألوف مسخرة من العمال والفلاحين المصريين ٠

ثم تآزر يهود أوروبا على اصطياد « الخديو اسماعيل » بقروض أغروه بها ، للانفاق على الاحتفـال الباذخ بافتتاح القناة ، وارضاء شهوته لمظاهر الترف التى ظن أنها تجعل « مصر قطعة منأوروبا » حتى اذا استغرقت الديون، فتح الفرع الانجليزى لبيت « روتشيلد » خزانته لتمويل صـفقة شراء نصيب مصر من أسهم قناتها سدادا لبعض الديون عليها ٠

حتى اذا لم يبق لمصر ما تبيعه للدائنين ، كانت رقابة « صندوق الدين » على المالية المصرية ، احتلالا اقتصاديا يهوديا محضا ، أفضى الى الحاق مصر بأوروبا على قصف مدافع البوارج الحربية الانجليزية لثغر الاسكندرية سنة ١٨٨٢ ، ثم اغتصاب أرض الكنانة وضمها الى محميات التاج البريطانى سنة ١٩١٤ ، ثم اقرار وضع الاحتلال الانجليزى بمقتضى اتفاقية (سايكس ـ بيكو) التى وزعت تركة الرجل المريض في سنة ١٩١٦ ، قبل سبع سنين من اعـــلان نهايته ببلاغ مصطفى كمال فى مارس سنة ١٩٢٣ عن الغاء الخلافة الاسلامية٠

مؤرخونا على حق فيما سجلوا من سوآت الحكم العثمانى فى مرحلة احتضاره ...

لكنى لا أدرى لماذا لم تسجل كتب تاريخنا المدرسية ، مع (وحشية) السلاطين والولاة الترك ، مدنية معاصريهم من مرابى أوروبا مصاصى دماء الشعوب ، وجرائم المتمدنين الذين استوطنوا أمريكا وأستراليا ؟

لماذا تخرج أجيال منا ، لم يقرأوا فى أى كتاب مدرسى ، ما سجله شهود العصر الاوروبيون ، من جرائم قومهم فى المستعمرات التى اغتصبوها ، وفى أقطار شرقنا الآسيوى الافريقى الذى نكب بهم تجارا وغزاة ومبشرين ؟!

كتب العلامة الفرنسى « جوستاف لوبون » فى أواخر القرن الماضى :

[... الترك هم ورثة العرب فى مصر وقسم كبير من الشرق . والترك اذا ما نظر اليهم المرء من الناحية السياسية ، ادرك أنه قد كان لهم دور كبير من العظمة : فقد ارتعدت فرائص أوروبة فرقا لزمن طويل ، من سلاطينهم الذين قاموا مقام القياصرة وأحلوا الهلال محل الصليب فوق « أيا صوفيا » وبسطوا نفوذ الاسلام فى الآفاق .

[بيد أن عظمة الترك لم تكن فى غير الحرب . فهم وان استطاعوا أن يؤسسوا دولة كبيرة ، أثبتوا عجزهم عن ابداع حضارة . وكان أقصى جهودهم أن يستفيدوا مما أصبح تحت أيديهم من علوم العرب وفنونهم وصناعاتهم وتجارتهم ، ولم يقدر الترك أن يتقدموا خطوة واحدة فى هذه المعارف التى ازدهرت أيام سلطان العرب . ولا يستنتج القارىء مما تقدم أن أهالى تركية أحط من أوروبة ، فتركية فى الحقيقة تشمل على ذلك التضاد الغريب : أهلها ذوو صفات من الطراز الاول ، مع أن طبقاتها

القائدة أدنى منهم بمراحل ، مما ترى عكسه فى المغرب ففلاحو الترك وعمالهم • زهاد صابرون على العمل ، أوفيـاء لاسرهم ، ذوو نشاط واحتمال والجندى التركى يؤثر الموت فى مكانه على الهزيمة • وهو لايقبض راتبا ولايلبس سوى الثياب الرثة ، وأكثر طعامه الخبز والماء • فالترك قد لا يكونون خير جنود ، مع أنهم أسوأ الجنود قادة •

[ورثة العرب الاخيرون فى مصر : الانكليز • اذ ليست مصر تابعة لسلطان الترك فى الوقت الحاضر - أواخر القـرن التاسع عشر - فقد وقعت بين يدى انجلتره القوية التجـارية • ويمكن للاشخاص الذين اطلعوا على البؤس الشديد الذى شمل بلاد الهند منذ سيطر عليهـا الانكليز ، أن يبصروا المصير الـذى ينتظر مصر السيئة الحظ • وممـا ذكرته فى فصل سابق ، يتبين مقدار الضنك الذى أصاب مصر منذ سنوات ، بفعل **مضاربين** من الاوروبيين • وقد يصعب بيان ما امتصه رجال المـال الاوروبيون **ولا سيما اليهود** ، من فلاحى مصر فى بضع سنوات ! وانما نعلم مثلا من الارقام التى نشرها « مسيو فاندنبرغ » فى سنة ١٨٧٨ ، أن المرابين أخذوا من مبلغ ١٣٩٧ مليون فرنك ، الذى هو مجموع القروض الخمسة ، مبلغ ٥٢٢ مليون فرنك اكرامية أو عمـالة ! فلم يكن نصيب الخزينة المصرية من أصل مبالغ القروض سـوى ٨٧٥ مليون فرنك ، دفعت عليها من الفوائد ، من زمن طويل ، ما يعدل رأس المال !!

[ولكن ذلك الضنك المالى يعد أمرا ذهبيا عنـد قياسه بما ينتظر المصريين : فسيرون أنفسهم محاطين كالهنود **بطرق منظمة مخيفة هادئة سـاحقة عاصرة ممتصة ، لا تبقى ولا تذر !!** ويظهـر أن مصير المبانى العربيـة الاثرية سيكون كمصير أمثالهـا فى بلاد

الهنـد : أى أن تزال بسرعة ويحل محلهـا ثكنـات للجيش أو ما يماثلها • فهاهى ذى الاعمال من هذا القبيل تسير على عجلة فى عهد السادة الجدد • فعلى القـارىء أن يطالع مقالات « مسـيو دورونه » المرافق لبعثة الآثار فى القاهرة ، ليطلع على أعمـال التخريب التى تقترف فى الوقت الحاضر بما لا يصـدقه العقل ، وليعلم أن أنفس الآثار التى لا تقلد ، تهدم بحجة فتح الشوارع وبناء الثكنات لعساكر الاحتلال •••

[المغـول هم ورثة العرب الاول فى الهنـد • وقد ورثوا حضـارتهم • وهم ان لم يقدروا على انمـائها ، اسـتطاعوا أن ينتفعوا بها على الاقل ، فقد تمتعت بلاد الهند الواسعة فى أيامهم بالرخاء والغنى •

[والانكليز هم ورثة المغول فى الهند ، وقد مدنوها : أى أنشأوا فيهـا الطرق والخطوط الحـديدية التى تسـهل عليهم أن يستغلوا الهند • ولكنه نجم عن هذه **المدنية الجديدة** ، أن غرقت بلاد الهند فى بحـار من البؤس لم تر بقعـة من الدنيـا مثله ! والانكليـز عمليون ــ على خلاف الاسبان الـذين طردوا العرب فانحطت أسبانيا وتدهورت مدنيا واقتصاديا ــ فهم بدلا من أن يفكروا فى اجلاء الهنود ، رأوا من الحكمة أن يستغلوهم بانتظام• ونحن اذا ما نظرنا الى الامر من الناحية **التجارية** فرأينا بضعة ألوف من التجار يسوقون مئات الملايين من البشر الى العمل فى سبيلهم ، بأساليب **أشد من الاسترقاق ألف مرة** ، لم يسـعنا الا الاعجاب بالانكليز العمليين التجار • ويكون حكمنا غير ذلك اذا ما نظرنا الى الامر من النـاحية الانسانية : لقـد نشأ عن طريقة الانكليز الاستعمارية الدقيقة ، اغتناء الجزر البريطانية بما لا حد له ، وفقر أولئك الهنـود المسخرين فقرا مطلقـا • وصف أحـد

كتــاب الانكليز « مستر هنــدمان » حالة الهند فى هــذا العهد الانكليزى ، فأثبت أن انكلتره تغرق الهنود بالضرائب فلا يبقى لهم غير الموت جوعا ، وأنها تخرب جميع مصانعهم ، الوطنية ، لكى تتمــكن السلع الانكليــزية من ايجــاد أسواق لهــا · والســكان البائسون مكلفون بانفاق أربعمائة مليون جنيــه كل سنة ، على جيش الاســتعمار ، وخمسين مليــونا على الادارة ، فضــلا عن ارسال ما تعدل قيمته ـ من موارد الهند ـ خمسمائة مليون جنيه سنويا الى انكلتره ···

وفى مقال نشرته (مجلة القــرن التاسع عشر) بعنوان : افلاس الهند ، قدر المبلغ الذى نزفته انكلتره من الهند منذ عشرين سنة ، بعشرة مليارات ، عدا نفقات تموين ورواتب المســتعمرين الذين يأخذ كل منهم فى مستعمرة الهند راتب وزير أو أمير · وقد حددت مدة اقامة الموظف الانكليزى فى المستعمرة بخمس سنوات تكفى لاثرائه ···

[ويمكن اجتلاء حال الهند من عبارة « مستر هندمان » :

من الهند على تصدير حبوبها الى انكلتره ، مع موت ثلاثمائة الف

« ان من الامور المخيفة حقــا أن تكره الولايات الشمالية الشرقية من الهند على تصدير حبوبها الى انكلترة ، مع موت ثلاثمائة ألف شخص من أبناء الهند جوعا فى بضعة أشهر ··وفى سنة ١٨٧٧م مات فى مقاطعة مدراس وحدها نحو مليون شخص (٩٣٥٠٠٠) كما جاء فى التقارير الرسمية ·

[والمسوغ الوحيد الــذى قيل عن الجزية السنوية الباهظة التى تدفعها الهند الى انكلتره (٥٠٠ مليون جنيه) هو قول (مجلة الاسبوعين) : « انهــا ثمن تمتع الهنــد بحــكومة منظمة محبــة للسلام ! »

ويرى الهنود حتمـا ، شيئا من المبـالغة فى وصف حكومة الهند بمحبتها للسلام ، مع موت هنود يزيد عددهم كثيرا على عدد الذين يقتلون فى أشد الحروب سفكا للدماء ، وذلك بفعل الجوع فى كل سنة] ٠

ويقـرر شـاهد العصر أن من العبث تجـاهل رفض الشرقيين للغـرب وازدرائهم نعم مدنيتهم التى تقوم على ابادة الشعوب ، اما قتلا وسحقا كالذى حدث لسكان أمريكا وأستراليا وتسمانيا التى لم يبق من أهلها الاصليين أحد ، واما استنزافا واعتصارا حتى المجـاعة والموت ، كمـا حدث لشعوب آسـية وافريقية ٠ ويشير ، مثلا ، الى :

[الاسلوب الدقيق لربابنـة السفن الانكليـزية لجمـع ما يحتـاجون اليه من العمـال فى جزر الملايو : وهو أنهم يجتذبون بحيل خادعة ومظاهر ودية ماكرة ، كثيرا منأهل الجزر ويضربون رقابهم ، ثم يأخذون من رؤساء القبائل المعادية لهم ، عددا من العمـال فى مقـابل رؤوس القتلى ، ثم لا يعيدون العمـال الى حريتهم أبدا ، خـلافا للعهود ٠ ممـا جعـل العـالم الطبيعى « كاترفاج » يصل فى كتـابه عن (الجنس البشرى) الى قوله : « انه لا يجوز للعرق الابيض الاوروبى أن يلوم أكثر الشـعوب توحشا ، على عدم احترام حياة الانسان ٠ فليرجع ذلك العـرق قليـلا الى تاريخه القريب ، وليتـذكر ما صنع بالشـعوب ، غير الاوروبيـة ٠٠ وما أسفرت عنـه خطواته من اقفـار ، وليتـذكر جرائم القتل التى اقترفها بدم بارد ، لاعبـا لاهيا فى الغـالب ، واصطياده الانسان بانتظام كما يصطاد الوحوش ، واستئصاله أمما ليفسح المجال للمستعمرين الطارئين ٠ وليعترف بأن احترام حياة الانسان اذا كانت سنة مقدسة عامة ، فانه لم يرو أن شعبا انتهك حرمتها مثله] ٠

ويستطرد « لوبون » قائلا ، بعد دفع التجار الاوروبيين فى الشرق بالخسة والدناءة ، والوقاحة ٠

[وستكون قصة علاقة أوروبة المتمدنة بالصين فى القرن التاسع عشر ، من أسوأ الصفحات فى تاريخ حضارتنا ٠ وقد يدعى حفدتنا ذات يوم للتكفير عنها بثمن غال ٠ وكيف يفكر فى المستقبل فى أمر حرب الافيون الدامية التى أكره الانكليز فيها بلاد الصين بقوة المدافع ، على ادخال السم القاتل الذى أرادت حكومتها تحريمه لما راعها من أخطاره ؟ حقا ان فائدة انكلترة من تجارة الافيون مائة وخمسين مليونا من الجنيهات كل سنة ، ولكن عدد الوفيات السنوية من الشعب الصينى بسبب تعاطي الافيون ، ستمائة ألف شخص ، كما جاء فى احصاءات « الدكتور كريستليب » المعتدلة ٠ وهنا نسأل : أليس من الحق أن يعلم الصينيون أبناءهم وصف الغربيين بالمتوحشين ، بعد ما رأوه من حرب الافيون الطاحنة وما انتهت اليه من اباحة تجارته قسرا ؟ لا يكون جواب الصينيين ، كما روى الدكتور كريستليب ، على المبشرين الانكليز عندما يحاولون تنصيرهم ، الا أن يقولوا : « يا للعجب ! تكرهوننا على السم للقضاء علينا ثم تأتون لتعلمونا الفضيلة ؟ » وكأن الانكليز ينفقون على المبشرين ، ليعدوا الآسيوى للحياة الابدية التى يسوقه اليها سريعا ذلك الافيون الذى يبيعونه اياه] (١) ٠

الكلام كله عن الانجليز وأوروبا بعامة ، والتجارة والمال بخاصة ٠ واليهود هم المهيمنون على أسواق التجارة وخزائن المال ٠

---

(١) (حضارة العرب) ص ٧٠٧ : ٧١٢ من الطبعة الثانية لدار المعارف بالقاهرة ٠

وذهبت انجلترا بعار حرب الافيون ، وتوارى اليهود فى أوكارها ينسجون الخيوط لتحريك الدمى على المسرح الكبير •

ولم يدع حفـدة قتلة الشعوب وتجار الأفيون ومصاصى دماء الهنـود والمصريين وناهبى تركة الرجل المريض ، « للتكفير عن جرائم أجدادهم « بثمن غال » كما توقع شاهد القرن التاسع عشر •

بل سبق حفـدة الضحايا للتـكفير عن تلك الجرائم ، بابادة كل سكان هيروشيما ونجـازاكى ، وضـحايا الحروب المـدمرة فى الشرق الآسيوى ، ومسحوقى الوطأة العنصرية فى افريقيا وأمريكا •

وتسلطت اليهودية العالمية على حفدة المجرمين ـ متمدنى القرن التاسع عشر ـ بعقدة الوحشية النـازية ، فحملونا نحن العرب اصرها ، وتقـاضونا الحساب عليها والتكفير عنها بثمن فادح من شرفنا ووطننا ودمائنا ، من أمننا ووجودنا ومصيرنا •

ومازلنا نرجم رفات الرجل المريض الذى حملناه وحده وزر المصـائب التى حاقت بأمننا ، ويسلط مؤرخونا المجهر على أعراض مرضه وسوآت مرحلة احتضاره ، وكأنها وحـدها كل تاريخ هذه الدولة الاسـلامية ، وكأن العصر الحديث لم يشهد فى القرن التاسع عشر والذى قبله ، سوى وحشية السلاطين التـرك •

بحيث يشق على الواعين منا بأفاعيل « اليد الخبيثة » أن يحرروا تاريخنا الحديث فى فهم المعاصرين ، بما كشفت عنه الوثائق حديثا من أسرار المرحلة ، ومـا سجله شـهودها من المؤرخين الاوروبيين أنفسهم ، وعلمـاء الاجنـاس والحضارات •••

وهذا مثل قريب من شواهد اهتزاز الرؤية المعاصرة لتاريخنا فى العصر العثمانى :

فى سنة ١٩٧١ ، نشر الكاتب السورى « الاستاذ سامى الكيالى » فى (مجلة العربى) الكويتية ـ عدد ١٥٢ ـ مقالا عن بطولات الثورة العربية فى محاربة الاحتلال التركى الغاشم ٠٠ وحمل رحمه الله على « السلطان عبد الحميد الثانى » حملة قاسية ، بما خضب يديه من دماء شهداء الثورة العربية ، بأيدى السفاحين من القادة الترك ٠

فى شهر نوفمبر من السنة نفسها ، رد عليه الكاتب المغربى « الاستاذ أبو بكر القادرى » بمقال فى (مجلة دعوة الحق) المغربية ، حاول فيه أن يصحح تاريخ السلطان عبد الحميد « الذى شوهته الصهيونية فى أبشع صورة » لرفضه الصفقة التى عرضتها عليه ليبيع فلسطين وطنا لليهود ، فتآمرت مع قوى داخلية على هدم الدولة وخلع السلطان ، بالتواطؤ مع الاستعمار ٠ بعد أن لبث رحمه الله نحو أربعين عاما يشغل أوروبا ويحبط مؤامراتها على الاسلام ويرفع لواء الوحدة الاسلامية التى تخشاها الصهيونية وأوروبا أشد الخشية » ٠

فى العام التالى ، دخل فى القضية « الاستاذ سعيد الافغانى ، الاستاذ بجامعة دمشق » فنشر فى مجلة العربى (العدد ١٦٩ / ١٩٧٢) وثيقة عثر عليها فى خزانة شيخ الطريقة الشاذلية بدمشق ـ وكان السلطان عبد الحميد الثانى من أتباعها المريدين ـ تثبت تآمر الصهيونية على خلعه ، لرفضه المساومة على اغتصاب اليهود وطنا لهم فى فلسطين « وبفضله تأخر تهويدها من سنة ١٩٠٨ الى سنة ١٩٤٨ ، فكان الشهيد الاول الذى سقط دفاعا عن فلسطين » ٠

ثم ، فى صيف سنة ١٩٧٢ ، عقد ملتقى الفكر الاسلامى فى عاصمة الجزائر ، وألقى فيه الاستاذ المؤرخ « محمد عبد الله عنان » خلاصة بحثه القيم فى تاريخ الجزائر ، عرض فيه بطبيعة الحال للعهد العثمانى ، فجرى على المشهور لدى المشارقة من وصفه بالاحتلال التركى ٠

فكان أن تصدى له عدد من المعلقين ، الجزائريين بخاصة ، ينكرون هذا التشويه الذى جاز على كثير من المؤرخين المحدثين ، المشارقة بوجه خاص ٠ ويقررون أن الجزائر ما عرفت احتلالا تركيا قط ، وانما عرفت خلافة عثمانية دافعت عن ثغور الاسـلام وحملت لواءه ، « واستجابت للشعب الجزائرى فى محنته بالهجمات الصليبية فأمدته بجنود بواسل مؤمنين من اخوانهم الاتراك ، بذلوا دماءهم راضين فى الدفاع عن هذه الجبهة الاسلامية وصدوا عنهـا من استطاعوا من غزاة الصليبيين » ٠

وصرح رئيس المؤتمر ، السـيد مولود قاسم « وزير الاوقاف والشـئون الاسلامية » أنه وجه الدعوة الى عدد من مفكرى الاسـلام الاتراك ، وان تكن ظروف حالت دون حضورهم فانه يعرب عن افتقاده اياهم فى هـذا الملتقى ، وكان يتمنى لو أنهم حضروا ليعلموا أن الجزائر ما نسيت قط الجنود الشهداء الابرار الذين جاهدوا لحمـاية ثغورها ، وأنها تحمـل لهم أطيب الذكـرى والعرفان بالجميل !٠

وانتقل الجدل فى القضية من قاعات الملتقى فى قصر الصنوبربالعاصمة الجزائرية ، الى صحف المغرب التى لبثت طوال الموسم تتـابع نشر مقـالات الكتاب المغاربة ، فى هـذا التاريخ الذى اهتزت صورته فى رؤية أجيـال من أبناء الامة ٠٠ بما شابه من تشويه وبتر ٠٠

المبحث الثـــالث :

الإسرائيليـــــات

فى الغزو الثقافى واللغوى

كلمـا أمعنت النظر فى ذرائع الغزو الفـكرى ابان محنتنـا بالاحتـلال الاوروبى ، تحيرت فى أمره لا أدرى : هل كان لحساب الاستعمار كما يبدو فى ظاهره ؟٠

أو أنه ، أيضا ، سخر من حيث لا يدرى لحساب بنى اسرائيل ؟٠

فى منطقة الظل ، خلف التواطؤ اليهودى الصليبى على الشرق الاسلامى، توارت معـالم غزو جـائح للمواقع الفـكرية من وجود أمتنـا ، بجنـود من المستشرقين ومبعوثى ارساليـات التبشير الدينية والعلمانية ، مهدت الطريق للاستعمار الاوروبى الذى ما لبث أن صار مدخلا لبنى اسرائيل ٠

فى القرن التاسع عشر ، كانت حركة الاستشراق قد أتمت ما وكل اليهـا اليهـا من فحص ما جمع من تراث الاسـلام ، وفهمت منه شـخصية أمتـه ، واستخلصت عبرة التاريخ ما بين مد الفتوح الاسـلامية الكبرى ، وسـقوط الاندلس ونفاذ الغزاة الى قلاع الشرق الآسيوى ٠

وغير مجهول أن الاستشراق فى أول أمره ، وجه الى خـدمة الكنيسة الكاثوليكية وخضع لاشراف مباشر من كبار أحبـارها ٠ وكـانت حركة جمع المخطوطات من تراث الاسلام ودراستها تأخذ فى الكنيسة وضعا يبدو للرؤية القريبة بالغ الاهمية والخطر ، باعتبارها « من مهام الحبر الاعظم » فانطلق أعضاء بعثات الفاتيكان ورسل البابوات يجوسون خلال ديار الاسلام يجمعون كنوز مخطوطاته [وتبارى أتباعهم من رجال الاكليروس الشرقى ، فى اتحاف خزائن الفاتيكان بنفائس الذخائر من تراث الاسلام] لا يحصيها عد ٠

لكن تراثنا جاوز نطاق الكنيسة فى خدمة التبشير ، فقدم عطاءه العلمى والفـكرى الى أوروبا فخرجت به من عصورها الوسطى ، وغذت السـير من فجر النهضة والبعث (الرينسانس) حين شغلنا نحن بالجهاد فى صد حملات الحروب الصليبية التى دحرناها ، وان عطلت مسيرتنا الحضارية ٠

وتطلعت أوروبا ، مزهوة بقوتها المادية وتقدمها العلمى الى خيرات الشرق ، فوجهت حركة الاستشراق لتحقيق مآربها · وصارت له ، من ثم ، [مهمة مزدوجة : دينية وسياسية ، بعد أن كانت فى بداية الامر دينية محضة] ·

ونشطت الحركة قبيل الغزو الاستعمارى ، وسايرته حينا من الدهر تقدم اليه ما هدى فحص تراث الاسلام من فهم عقلية أمته ومزاجها وتاريخها ، وتعد له الرسل والدعاة الذين انبثوا فى أنحاء الشرق وخالطوا أهله : تجارا ومبشرين ورحالة ومعلمين ، وجنود استعمار (١) ·

●●●

أدى الاستشراق مهمته المزدوجة لخدمة التبشير والاستعمار ، بما أعطى من دروس وعبر مستخلصة من تراث الاسلام وتاريخ أمته ·

فما دور اليهود فيما امتحنت به أمتنا من تمزق وضعف واحباط ، وما حط عليها من وطأة الاستعمار ؟·

قبل مغيب القرن الماضى ، مد « جوستاف لوبون » ـ الذى رضيته شاهد عصره ـ بصره الى متجه الاحداث فى المستقبل القريب من زمنه ، فلمح بهاجس من القلق ، نذر تغير المقاييس فى صراع القيم : من الشجاعة وكرم الخلق والمعارف العلمية والفنية ، الى الميزان المادى الذى يفضى حتما الى سيادة بنى اسرائيل · قال :

---

(١) القضية معروضة بتفصيل فى كتابى (تراثنا بين ماض وحاضر) ـ معهد البحوث والدراسات العربية ، ودار المعارف ·

وانظر فى الوثائق التاريخية لحركة الاستشراق فى مهمتها المزدوجة ، كتاب المؤرخ اللبنانى الحجة « الفيكونت دى طرازى » : (خزائن الكتب العربية فى الخافقين) نشرته وزارة المعارف اللبنانية · وما بين الاقواس هنا منقول منه بنص عبارته ·

] واليوم يميل الناس الى قياس الافضلية بما يملك من المال وسيكون ملوك العصر الذى سندخله عما قريب ، أقدر الناس على حيازة الثروات • ونرى اتصاف بنى اسرائيل بدرجة من هذه القابلية لم يساوهم فيها أحد • ونبصر من خلال الكره العام لهم فى كل مكان ، ما يدل على اضطرار الناس الى مقاتلتهم للتخلص من سلطانهم الخطير [(١) •

وتحققت نبوءته ، فى تحول الموازين فى صراع القيم ، وفى محاولة الناس أن يقاوموا لعنة سقوط العالم بين مخالب ملوك المال من بنى اسرائيل ، وان أعيا الناس سبيل الخلاص •

ولو امتد به العمر ، لرأى ببصره ما لاح لبصيرته وهو يمعن النظر فى متجه الاحداث :

] واليوم لا أمل لاحد فى المحافظة على غير ما يقدر على الدفاع عنه • فاما غالب واما مغلوب ، اما صياد واما قنيصة • فهذه هى سنة الازمنة الحديثة • فلا قيمة لكلمات العدل والانصاف فى علاقات الامم بعضها ببعض ، ولا مؤيدلها ـ بعد تحول موازين القوى والقيم ـ وهى من الالفاظ المهمة المشابهة لاحتجاجاتنا المبتذلة التى يستعملها العالم بأسره وتنتهى بها رسائلنا دون أن تخدع انسانا • واليوم يحدثنا الشعراء عن العصر الذهبى الذى يسود فيه اخاء عام ، واننى أشك فى وجود هذا العصر ، وهو ان وجد تلاشى الى الابد [٧١٣

●●●

---

(١) (حضارة العرب) ص ٧٢٩ من الطبعة الثانية للمعارف سنة ١٩٤٨ ، مترجمة عن الاصل الفرنسى وقد نشره العلامة جوستاف لوبون سنة ١٨٨٤ م •

فى كتاب « وليم غاى كار » بيان مفزع مدعم بالوثائق ، لمحنة العـالم بسيادة قوة الوثنية المادية لليهودية العالمية ، التى جعلت من ساسة العصر وقادة الدول وموجهى مصاير الشعوب ، أحجارا فى « اليد الخبيثة » على رقعة الشطرنج ٠

فماذا بقى لدينا من مطمع لليهود ، بعد أن سخروا الغزو الاسـتعمارى ليستنزف لهم خيرات الشرق بطرق منظمة ساحقة عاصرة لا تبقى ولا تذر ؟٠ ماذا بقى لهم فى وطننا بعـد أن وضع الاستعماريون موارده الاقتصـادية فى قبضة المرابين والتجار اليهود ؟

بقيت أرض الميعـاد !٠

لقد استطاعت « اليد الخبيثة » أن تسخر الاستعمار لحسابها وفى وهمه أنه يثأر للصليبية ـ حتى من الهند والصين واندونيسيا ! ـ وأن تجند الدول الغربية لخـدمة الوثن اليهودى ، وفى وهمهـا أنهـا تتقاسم منـاطق النفوذ والاستغلال وتمد سلطانها على أقطار الارض ٠

ولكن الاستعمار الذى انتهب الشرق لليهود وصب ثرواته فى خزائنهم ، قد باء باللعنة والمقت ، وعجز تماما عن اقناع الشرقيين بنعم المدنية الغربية ٠

وهذا هو الدرس البليغ الذى استخلصه شهود الغزو الاستعمارى من المؤرخين الاوروبيين ، وقدموه الى قومهم ٠

فى سنة ١٨٨٤ ، كان كتـابا « جوستاف لوبون » (حضـارة الهنـد ، وحضارة العرب) فى أيدى الاوروبيين ، يقرأون فيهما الدرس والعبرة ٠

[انه لمن المفيد لأوروبة ، البحث فى أسباب رفض الشرقيين باصرار حضـارة الغرب ومعتقداته رفضا مستمرا عنيـدا ، مع اعتناقهم بسهولة وعن طواعية ، ما أتاهم به العرب] ٠

ولم يصح عند « لوبون » أنه يكفى القول بتعقد الحضارة الاوروبية ، أو التباين فى الشعور والتفكير ، تفسيرا لهذا الرفض العنيد المستمر ٠ وانمـا

هو الاحتقار والازدراء لما كشف عنه الغزاة التجار من دناءة وخسة وضراوة جشع ، وما اقترفوا ضد الشعوب والامم والجماعات ، من جرائم وحشية تنفيهم عن بنى الانسان ٠

[وقد استوقفت بغضاء الشرقيين للاوروبيين ، نظر جميع السياح الذين لهم قدر من الملاحظة ٠ وأذكر منهم السياسى الممتاز « مسيو دورو شيشوار » الذى قال فى كتاب نشره حديثا : « ان أول ما يراه الغريب حينما تطأ قدماه أرض الهند ، هو كره الهندى لسادته ٠ وأجراء البيض فى الصين ، شديدو الخجل من أبناء وطنهم ، لاضطرارهم الى الاتصال بأولئك البيض » ولا ريب أن للشرقيين فى سلوكنا ما يسوغ بدرجة الكفاية ، مقتهم لنا أشد المقت ٠ ولم ينشأ عن فتح العرب للشرق مثل تلك الشرور ٠٠٠ ولابد أن تنال يد التبديل التام ، حياة الامم الشرقية عند اتصالها بالاوروبيين] (١) ٠

الى ذلك المدى ، باءت أوروبا مجتمعة باللعنة والعداوة والبغضاء ، دون أن يحمل اليهود أوزار الجرائم التى اقترفتها الدول الاستعمارية المحكومة ماليا وسياسيا بعصابات من يهود يحملون شتى الجنسيات الاوروبية ، دون أن تكون لهم دولة أو وطن ٠

وكان لابد أن تتغير الذرائع ، لاعداد جيل منا ، ترسخ فيه عقيدة الشعور بالنقص تجاه الغربيين ، بديلا من عقدة المقت والاحتقار ٠ ليقبل عن طواعية ما رفضه آباؤه « رفضا عنيدا من أفكار الغرب وأخلاقه ومعتقداته » !

جيل يفرط فى عقيدته وقيمته وأصالته ، ويتوزع ولاؤه وانتماؤه ، فيكون هو الذى يبشر فى أمته بما أعيا الغزاة أن يدسوه اليها من بضاعة الاسرائيليات التى سيطر بها يهود المستشرقين على فكر الغرب الاوروبى ، كما سيطروا على اقتصاده وسياسته ٠٠٠

---

(١) (حضارة العرب) : ٧١٢ ٠

الى منتصف القرن الماضى ، كان الجمهرة من أبناء الامة فى عامة أقطار المشرق والمغرب ، يتعلمون فى المدرسة الاســلامية على منهج موحد • القرآن الكريم كان كتابهم الاول الذى يبــدأون على نوره وعى انسانيتهم النــاطقة ، يصحبهم من بداية الطريق ويمنحهم أول زاد للمعرفة • وبعد حفظه وتجويده ، يتلقون مبادىء علوم العربية والاسلام فى كتب موحدة •

ثم يتجهــون بعــد ذلك الى مــا تيسر لهم من تخصص فى فروع العــلم وميادين العمل •••

وكان اتصال الشرق بثقافة الغرب ومدنيته ، عن طريق بعثات من هؤلاء الطلاب الذين أتموا دراستهم فى المدرسة القومية الموحدة ، ورسخت جذورهم فى بيئتهم الشرقية الصميمة ، فلم يجد الغزو الفــكرى ســبيلا الى تشــويه شخصيتهم ، واقناعهم بنعمة عطاء المدنية الاوروبية المحدثة التى كانت تعربد قريبا منهم فى ديار أهلنــا بالجــزائر ، وتستنزف فى الشرق الآســيوى وعى الصينيين باجبارهم على تعاطى الافيون ، وقوت الهنود حتى المجاعة والموت•

وعاد طلاب البعثات من أوروبا ، جنودا فى كتائب اليقظة • ومنهم كان أساتذة مدارس الالسن والطب والهندسة والعلوم العسكرية ، برية وبحرية ، التى عمرت بها بلادنا فى النصف الاول من القرن الماضى ، على عهد محمد على والى مصر للدولة العثمانية •

فى ليل الاستعمار ، اختلف الوضع تماما :

فتحت ثغور وطننا للارساليات التبشيرية والبعثــات التعليمية الاجنبية من كل جنس وملة ولسان ، فنشبت فىديارنا تتلقى أبناءنا من طفولتهم الغضة، وتتعهدهم بالتربية والتعليم والتثقيف والتوجيه ، لتخرجهم غرباء فى وطنهم لغة وفــكرا ووجدانا ، قد برئوا تماما من عقــدة ازدراء الاوروبيين ومقتهم ، وأبدلوا بهــا عقــدة الشعور بالنقص تجــاه الفرنجة ، لطول ما ألح جنــود

الارساليات العلمانية والتبشيرية ، على وجدانهم وعقولهم بأن الشرقيــة سمة تخلف وانحطاط والعربية علة تأخر ومرض ، والاسلامية مظهر تحجر وجمود ٠

وعز على ابنائنا الغرباء فى وطنهم أن يلتقوا فيما بينهم ، وقد توزعتهم مدارس الليســيه واليسوعيين والفرير والجزويت وســان جورج والانجليـة وفيكتوريا والامريكان والراعى الصالح والقلب المقدس وأم الاله وسيدة الرسل والراهبات الفرنسسكان ٠٠٠

فضلا عن أن يلتقوا باخوة لهم وأهل وجيران ، لم يكن لهم كتاب غيــر القرآن الكريم ، ولدان لهم وأتراب من تلاميذ المعاهد الدينية ، يبرأون من فتنة الفرنجة وزيغ مدنيتهم المصدرة الينا ٠

وكان المفروض أن يقود أخلاط المتخرجين فى مدارس الفرنجة ، الحياة السياسية والفكرية للامة ، بحكم فشو الامية التى جعلهــا المستعمرون فرضا محتوما على جماهير شعوبنا فى مشرق ومغرب ، لكن آباء الجيل أحسوا بوادر الخطر ، فكان طبيعيا أن تشــهد المرحلة ــ بعد وعد بلفــور ــ صراع القيم بين المسخ الطارىء والاصالة الراسخة ، فلم يسمح جيل آبائنا لليهود بأكثر من الوعد المشؤوم الذى حف به من نذر الكارثة ما عبأ الشعوب العربية لثورات التحرير التى حمل لواءها فى جبهات المشرق والمغرب ، قادة النضال الوطنى

وفى الموقع الفكرى ، رابطت جنود من المجاهدين ، لمقاومة ذرائع المسخ والتشويه والغربة والضياع ٠ وبجهودهم قامت الجامعة الحديثة لتقودالحياة العلمية والفكرية للامة ، فى مهب الغزو الجائح ٠

لكن اللوائح الحكومية فى عهد الاحتــلال ، ما لبثت أن كبلت الجــامعة بقيود معوقة معطلة ، وتسللت اليها الحزبية السياسية فأوشكت أن تسمم جوها العلمى ابان محنتها بالنفوذ الاستعمارى الذى أراد ليتخذ منهــا قاعدة غزو فكرى ٠٠

وبقدر ما حطت الرجعية بكل ثقلها على الجامعــات الاسلامية العريقة

ومعاهدها الدينية لتعزلها عن حياة العصر وتعوقها عن أداء رسالتها الكبرى في حماية الاصالة واصلاح الحياة بالدين ٠

حط الاستعمار بأشد وطأته على جامعتنا الحديثة فدس اليها جنوده في زى العلماء ، فكانت لهم أكثر كراسى الاستاذية فى الكليات ذات الحساسية مثل كلية الحقوق التى يتخرج فيها رجال السياسة والتشريع والقضاء ، وكلية الآداب التى تدرس شخصية الامة فىلغتها وأدبها وتاريخها وفلسفتها وآثارها، وما تلقت وتتلقى من روافد فكرية ، شرقية أو غربية ، قديمة أو حديثة ٠

فى جامعة القاهرة مثلا ـ واليها وقتئذ كانت رحلة طلاب العلم منمختلف أقطار الوطن العربى ـ كان الاساتذة الاجانب يرأسون أقسام اللغاتالاوروبية الحديثة والقديمة ، وقسمى الآثار المصرية والاسلامية (؟!) ويختارون لها من أعضاء هيئة التدريس ، ويرشحون لبعثاتها فى أوروبا ، ويمثلون هذه الاقسام فى مجلس الكلية ، ويكونون جبهة واحدة غالبة ، فى توجيه خطتها ومناهجها ومناقشة كل قرار لاى قسم من الاقسام الاخرى فى الكلية ٠

ومعهم فى المجلس ، عضوان أجنبيان من خارج الكلية ، تتدخلالسفارات الاجنبية فى ترشيحهما ، وترشيح سائر الاساتذة ذوى الكراسى وغيرهم ، وتتنافس على شغل الكرسى الذى يخلو من أحدهم ، وتعد نجاحها فى الظفر بالكرسى لاستاذ من رعايا دولتها ، عملا سياسيا من الدرجة الاولى ٠ وأذكر أن « أستاذنا الدكتور طه حسين » على عهد عمادته للكلية ، صارحنى غير مرة ـ ولعله صارح غيرى من الطلاب ـ باعتزازه بما كان من تحديه سلطة الاحتلال البريطانى ، بتعيين أستاذ فرنسى خلفا لفرنسى آخر ، وكانت سفارة انجلترا تطلب الكرسى لمرشحها الانجليزى ٠

وقد شهد جيلى من طلاب الجامعة ، نضال أستاذنا « أمين الخولى » لتحرير مجلس الكلية من هذا الاستعمار الفكرى ٠ وسجلت محاضر المجلس فى سنة ١٩٤٧ ـ قبيل صدور توصية الامم المتحدة بتقسيم فلسطين ـ ما دار

من جدل عنيف حول اصرار أستاذنا على قصر عمل الاجانب على التدريس ، دون رئاسة الاقسام أو عضوية مجلس الكلية (١) ٠

وكان مثل هذا الغزو الفكرى لحصوننا العلمية ، يظاهره ما اجتاح المجال العام من غزو مؤسسات الثقافة الاجنبية وأجهزة اعلامها المدربة ودعاياتها العصرية ٠ وفتحت للانفاق عليها بسخاء ـ ولتكن مؤسسة فرانكلين مثلا ـ خزائن المال اليهودية فى الغرب ٠

وازدادت أزمة الغربة بين أبناء جيلنا حدة وتعقدا ، وضج الميدان الثقافى بدوى الصدام بين قديم وجديد ، ويمين ويسار ، وشرق وغرب ٠٠٠

وبهذا الجيل من المثقفين الغرباء ، واجهت الامة مرحلة ما بين التقسيم والكارثة ٠

منهم كان أعداء الفكر الحر ومقاومو التجديد ، الذين لا يحسون سير الزمن ولا تنفذ الى مسامعهم أصوات العصر ٠ ومنهم كان مروجو الاوهام وباعة الاحلام وتجار المخدرات المعنوية المسقطة لوعى الجماهير ٠٠

ومنهم كذلك كان حملة الاسرائيليات الى صميم الموقع الفكرى ، ودعاة الانتماء الى الغرب ـ أى غرب ؟ ـ لغة وثقافة وسلوكا ، والمتطوعون بايقاظ أمتنا من أفيون الشعوب ، والمبشرون بفردوس موعود يملك مذهبهم مفاتيح أبوابه ٠٠٠

وأفضت شتى الدروب ، ببنى اسرائيل الى اجتياح ديارنا لملكتهم : من النيل على الضفة الغربية لقناة السويس ، الى مشارف الفرات ٠٠٠

●●●

---

(١) بمزيد تفصيل ، فى كتابى (قيم جديدة الادب العربى ، القديم والمعاصر) ط المعهدسنة ١٩٦٧ ، والمعارفسنة ١٩٧٠ : ص ٢٧٣ وما بعدها٠

كيف نفذ اليهود من هذا الغزو الفكرى الجائح ، فوجهوه لخدمة مآربهم من وراء ثأر الصليبية وخدمة الاستعمار وصراع المذاهب ؟٠

كتائب المستشرقين ، اليهـود منهم بخاصة ، قدموا تفسـيرا لتـاريخنا مشحونا باسرائيليات حملها الينا الغزو الثقافى ، فوجهت فهمنا لما ندرس من شخصية أمتنا : جنسا ، ولغة ، وعقيدة ٠

وعلى مراحل متتالية ، غيروا لنا شعار قوميتنا وبدلوا ، ونحن ندور معه حيث وجهوا :

وسبق القول انهم أعطونا العروبة بديلا من الاسلام الذى علموا يقينـا أنلواءه أظلنا بضعة عشر قرنا أمةواحدة ، وبه حققت وجودهاالحر ، وفرضت عزتها على العالم ، وأبدعت حضارتها القائدة الرائدة ٠

وتداعينا بالعروبة ، لم نفكر قط أنها البديل من الاسلامية التى أريد لنا التفريط فيها ، حتى اذا أوشكت القومية العربية أن تكون باعثة يقظة ، وداعية تمرد على ذل الاستعباد للغرب الذى شـهد مؤرخوه بجليل عطـاء الحضارة العربية للنهضة الاوروبية ٠

عمدوا الى تمزيق القومية العربيةبفتنة السلالات القديمة لشعوب وطننا، فكانت مرحلة القوميات الشعوبية التى غذتها بعثات الحفريات الاثرية ، بمـا كشفت عنه من آثار حضارات قديمة لشعوبنا طوت ما كان منشورا من أمجـاد العروبة وحضـارة العرب وبطولاتهم ، وبهر بريق أضوائها أبصـار الكتاب والشعراء والمغنين ٠٠ فطربنا على شدو المعازف التى غنت طول المرحلة لمجد الاسلاف ، وأرهفت اعتزازنا بالانتماء الى ما كان لنا فىقديم العصورالخوالى من قوميات عريقة ، لم نكد نلتفت الى ما يقرره الواقع التاريخى من أن تلك القوميات القديمة ذابت فى شخصيتنا العربية الاسلامية ، وانصهرت فىبوتقة قوميتنا الجامعة ، حتى اذا ما أوشك هذا الاعتزاز بماضينا الحضـارى أن يرفض لنا مهانة الخضوع لرق الاستعمار ، أسلمتنا المرحلة بدورها الى تمزيق

كيان كل شعب ، بأيدى الارساليات التبشيرية والعلمانية التى جعلت أبنــاء البلد الواحد ، بل البيت الواحد ، فيما بينهم غرباء ...

هكذا سرنا على الدرب الذى خط لنا :

رضينا بالعروبة شعار قومية ، فى مرحلة التحضير لنهاية الخلافة الاسلامية . ثم لما أن صارت باعث نخوة ، نسخوا كل ما نشروا فينا من عطاء (حضارة العرب) وأغرونا بأن نستبدل بها وطنية العصبيات الشعوبية الموروثة ، ثم لما أرهفت احساسنا بمهانة الاستعباد الذى لا يجوز على ورثة حضارات بابل وآشور والفراعنة والفينيقيين والبربر .. نسخوا أنفسنا هذه أيضا ، وأرهقونا بعقدة النقص تجاه الشرقية العتيقة ، والعربية البدوية والاسلامية السلفية ، وأخذنا بفتنة العصرية الغربية المتحضرة ، وتوزع انتماؤنا الى شتى المدارس والثقافات ...

بعدها طرأت المذاهب الوافدة تمزقنا بينها طرائق قددا ..

وعندئذ استبيح وطننا لشراذم وأوشاب من بنى اسرائيل الملعونين أينما ثقفوا طرأوا من شتى أقطار الدنيا التى ذاقت الويل من شرهم ، فأخرجونا من ديارنا وانتهكوا أقدس حرماتنا ، فما أغنى عنا جديدنا من عصرى الثقافات ومحدث الايديولوجيات .

وعلى ذلك المدى الطويل ، ما بين الوعد المشؤوم والنكبة ، عرفنا ازدواج الولاء القومى ابان الاحتلال . فكان منا من يحملون جنسيات أجنبية لبلاد لم تطأها أقدامهم قط ، ليتمتعوا بالامتيازات الممنوحة لتلك الجنسيات ، وهم يعيشون حيث ولدوا وولد آباؤهم وأجدادهم ، فى بلاد عربية ، الامتيازات فيها لغير أهلها العرب !

بعده عرفنا فى المجال الثقافى ازدواج الانتماء الفكرى ، فكان منا عرب يشغلون فى بلادنا مراكز قيادية ومواقع التوجيه للرأى العام ، وهم يعتزون

باتنمائهم الى مدارس الفرنجة ويبرأون من العربية البدوية ! (١)

بعده عرفنا ازدواج العقيدة ، فظهر فينا من يقول انه مسلم ماركسى ، أو مسيحى لينينى ، أو مسلم بهائى ··· ومن يبشر فينا بفهم عصرى للقرآن ، غير فهم نبى الاسـلام الامى ، من بدو القـرون الخـالية ، لم يسـمع قط بكلمة انثروبولوجيا أو تكنولوجيا أو فسيولوجيا أو جيولوجيا ···

ونعجب ، وياللعجب ، أن أفضت الدروب الى تل أبيب ···

●●●

---

(١) أنظر مثلا كتاب (هؤلاء علمونى) وكتاب (البـلاغة العصرية) ، للكاتب سلامة موسى ، من أشهر كتاب المرحلة ·

وفى دراسـتنا لشخصية الامة : جنسـا ولغة ، ألقى اليهود الينـا من اسرائيلياتهم ، بذرة السامية ، ثم تركوا لنا أن نتعهدها نحن بالرى والانبـات حتى آتت أكلها السام ٠٠٠

فى جيلنا ، كان المستشرقون اليهود يأخذون أماكنهم فى قدس الجامعة المصرية ، أساتذة فى كليـة الآداب ، يعلموننا فقـه اللغات السـامية ودرسها المقارن ، وتتولى أكبر دور النشر المصرية اخراج دروسهم مطبوعة ، الىمجال التأثير العام ٠

وفكرة السامية ، كما علمونا ، تدور عندهم وتحور حول أصل واحـد مشترك للعرب واليهود ٠

وفى تفسـيرهم لحركة التحول الكبرى لشعوب وطننـا الى الاسـلام والعربيـة ، أضـافوا الى ما قدموه الى قومهم من الدرس التـاريخى للفتوح الاسلامية ، ما تعلمنـا منهم وما نقرأ لهم عن وحدة أرومة سـامية لشعوبنا ، جعلتها تستجيب معا للاسلام وتتخلى معا عن عقائدها الموروثة وعصبياتهـا الوطنية ولغاتها القومية ، وتبدأ تاريخها المشترك دون أن يفسروا لنا لماذا لم تظهر وحدة العرق السامى لشعوب أمتنا ٠ فيما كتبوا عن تاريخ ألف عام من حياتها قبل الاسلام ، حيث تعاقب عليها الرومان واليونان والفرس ، وحاولوا أن يفرضوا عليها عقائدهم ولغـاتهم وقومياتهم ، فواجهتهم شعوبنا بالرفض والتحدى ٠ ولقيت عقائد الغزاة ولغاتهم وثقافاتهم المفروضة بالاكراه : عقيدة مستعمر بغيض ولغة دواوينه الرسمية وثقافة أجنبى دخيل ، يرتهن بقاؤهـا بما يحميها من سلطة المحتل ، ويصر كل شعب على التعامل بلسانه القومى ، خارج النطـاق الرسمى المحـدود ، وعلى التمسك العنيـد بموروث عقيـدته وتقاليده وأعرافه ٠

غاب ذلك العرق فى تاريخنا القديم دهورا وأحقابا ، لم يهتدوا اليه قبل

الاسلام الذى استجابت له شعوب المنطقـة ، بوحدة أروقتها فيمـا يقولون : الآسيويون منا ، من فارس والعراق الى الحجاز واليمن : ساميون !

والافريقيون وان فشت فيهم الحامية ، فهى صبغة طارئة ، وليسوا سوى سلالة هجرات سامية قديمة من بلاد العرب « الموطن الاصلى للجنس السامى »!

وبهذا الوثاق شدونا شدا الى اليهود الذين لا تذكر السامية الا معرفة بهم ودالة عليهم ٠

بل يمضى بعضهم فيعطى العبـريين حضـارات شرقنا القـديم ودياناته السامية ، من بابل الى مكة واليمن ٠

●●●

وحين نلتمس المســارب الاولى لفكرة السامية ، أرومة ولغة ، نجـدها خرجت من يهود الاندلس فى العصر الوسيط ، اذ كانوا أول من ظهر بمقـولة الوشائج الرابطة للشعوب السامية ٠ ويبرز فى هذا المجال « موسى بن ميمون » الذى تظاهر باعتنـاق الاســلام فى الاندلس ، فاستطاع أن يبث ما شـاء من اسرائيليات فى المناخ الفكرى لتلك الساحة التى كان منار الحضارة الاسلامية فيها ، يهدى مسرى الغرب الاوروبى فى ليل عصوره الوسطى ٠

ثم لمـا نزح « ابن ميمون » الى مصر ، خلع اسـلامه المزيف ، من يوم وصوله ، وأخذ موضعه حاخاما لطائفة اليهود فى مصر لكنه ابتلى بعـد حين بفقيه أندلسى مر بمصر فى طريقه الى الحجـاز ، فكشف عن الوجـه الخبيث وشنع عليه بالردة ٠ وكاد « ابن ميمون » يؤخذ بها ، لولا أن صرح فىمحاكمته بأنه انما دخل فى الاسلام بالاندلس مكرها ، فنجا ، وقال « القاضى الفاضل » :

[رجل مكره ، لا يصح اسلامه شرعا] (١)

ثمجاء « شلوسر » من بعده ، فكانأول مؤرخ غربى ـ فيما بعد ـ استعمل مصطلح (السامية) فى بحوث له نشرها فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر . وقد صرح بأن هذه التسمية مأخوذة من نص فى (التوراة ، سفر التكوين) على أولاد بنى نوح : سام وحام ويافث ، ممن ولدوا بعد الطوفان !

ومن ذلك الحين ، اعتمدت فكرة تقسيم أصول الجنس البشرى الى سامية وحامية وآرية ، فى دراسات لعلماء اللغة والاجناس ، أعطت الفكرة الاسرائيلية صبغة علمية بما أقامت عليها من بحوث جادة ، لها مكانتها فى الغرب والشرق ، رغم وهن الاساس الذى قلعت عليه ، اذ توغل بلغاتناوأعراقنا فى غيابات عصر الطوفان ، بفقرة فى (سفر التكوين) تقص خبرا عن بنى نوح فى الغابرين .

وأنقل من نص الاصحاح التاسع ، من سفر التكوين :

[وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك : ساما وحاما ويافثا ... وحام هو أبو كنعان . هؤلاء الثلاثة هم بنو نوح ، ومن هؤلاء تشعبت كل الارض . وابتدأ نوح يكون فلاحا وغرس الكرم وشرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه ، فأبصر « حام ، أبو كنعان » عورة أبيه ، وأخبر أخويه خارجا . وأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا الى الوراء وسترا عورة أبيهماووجهاهما الى الوراء فلم يبصرا عورة أبيهما . فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير . فقال :

---

(١) أنظر « ابن ميمون » فى (تراجم الحكماء ، للقفطى) ومعه : كتاب (العقيدة والشريعة فى الاسلام) لجولد تسيهر : ص ٢٧٨ منالترجمة الغربية ، دار الكاتب المصرى بالقاهرة ١٩٤٤ .

ملعون ـ ابو ـ كنعان ، عبد العبيد يكون لاخوته ، وقال : مبارك
الرب اله سام ، وليكن كنعانُ عبدا لهم] ٠

والذين أرخوا للاخبار الواردة فى التوراة ، حددوا لهذه الواقعة تاريخ سنة ٢٣٤٧ ق٠م٠

واذ اعتمد العلامة الفرنسى « جوستاف لوبون » [كتب العبريين مصادر أولى لتاريخ العرب] ـ كما صرح بذلك فى كتاب (حضارة العرب) ـ جازت عليه فكرة السامية الاسرائيلية ، رغم ارتيابه الصريح فى صحة وجودها أصلا وعلمه بتباين هذه الامم السامية ـ المقول بوحدة عرقها ـ منذ أقدم عصور التاريخ ٠ قال يؤرخ لمنشأ العرب :

[عد العرب واليهود والفينيقيون والعبريون والسوريون والبابليون والاشوريون ، الذين استوطنوا جزيرة العرب وآسيا الصغرى الى الفرات ، من أصل واحد يدعى بالارومة السامية ، وتقوم قرابة تلك الامم على تجانس لغاتها واشتراك أبنائها فى صفات جثمانية متماثلة ٠٠٠ ومن الممكن أن نجادل فى قيمة هذه الصفات] ٠٠٠ (١)

وبعد أن نقل متونا من كتب العبريين عن صفات جثمانية متماثلة فى السامية ، استطرد يقول :

[ومهما تكن تلك الصفات التى نجادل فى قيمتها ، ومهما تكن تلك القرابة التى لا نجزم بها ، فانا نراها ترجع ـ على فرض وجودها ـ الى ما قبل التاريخ ٠ وقد كانت تلك الامم السامية على

---

(١) تشير الارقام بعد الفقرات المنقولة هنا ، الى صفحاتها فى الطبعة الثانية من الترجمة العربية لكتاب (حضارة العرب) ٠

اختــلاف وتباين منذ أقــدم عصور التاريخ كمـــا دلت عليــه الروايات] ـ ٨٤

وموقف العلامة « لوبون » من هذه القضية ، يعطينا شاهدا على المدى الذى شوشت به المقولات الاسرائيلية ، على الفكر الغربى فأوقعت مثل هــذا المؤرخ الكبير ، فى حيرة وتهافت وتناقض :

نظريته فى تمييز العروق البشرية ، لا تعطى الصــفات الجثمانية قيمة قط ، بل الاخلاق والسجايا هى مناط التمييز عنــده ، فكلمة العرق فى تعريفه ترادف كلمة النوع ٠ وقد ثبت لديه :

[أن عروق البشر مفترقة فى أخلاقها افتراق أنواع الحيوان ٠ والعرق يدل على جماعة ذات أخلاق مشتركة تنتقل اليها بالوراثة المنتظمة ٠ والوراثة التى تتراكم بهـا أخـلاق العرق وسـجاياه وترسخ مع الزمن ، أقوى من البيئة وأعظم أثرا ٠٠٠ من أجل ذلك ترى بنى اسرائيل يحافظون على مثالهم الخلقى والنفسى فى كـل قطر ٠٠٠ وانما تؤثر البيئات فى العروق الحديثة ، أى التى تنشأ عن توالد مختلف الامم ذات الصــفات المتبـاينة ٠ فاذا ما فلت الوراثة وانحلت بذلك مقومات الماضى القـديم الموروثة ، بفعـل الوراثة الجديدة ، خلا الميدان للبيئة فقامت بعملها] ٠

ويؤكد نظريتــه فى تمييز العروق البشرية بسجاياها الخلقيــة المتراكمة بالوراثة فيكاد يعطى غيرها :

[لا تصلح اللغــة والدين والجماعات السياسية والصفات التشريحية ، كشكل الجماجم ولون الجلود والسحنات ، لتقسيم العروق واظهار الفروق الدقيقة بين الامم المتقاربة ، وان صلحت الاوصاف التشريحية لتقسيم الاجناس الظاهرة الاختلاف البادية التباين ٠ بيد أنه توجد صفات نفسية ، وان شئت فقل : ســجايا

خلقية ، ثابتة ثبات الصفات التشريحية ··· وسيأتى يوم تكـون فيه هذه السجايا الخلقية التى أغفلهـا علم الانسـان الحديث ، أساسا لتقسيم العروق ومن يمعن النظر فى تطور احـدى الامم يعجب مما يلاحظه من تجلى سجاياها الخلقية على نمط واحد فى مختلف العروق ومتتابع الاجيال · وتنشأ عن الصفات النفسية نظم الامة وشأنهـا فى العـالم على الخصوص · وتسـتتر تحت الاخلاق ، أى تحت المقومات الموروثة التى تولد مع الانسان وتقرر نمط شـعوره وفعله ، عوامل السلوك اللاشعورية · دراسة تلك العناصر ، لا دراسة النظم السياسية التى هى معلولات لا علل ، هى التى ترشـدنا الى سر الـدور الذى تمثله الامة أو الجمـاعة والشعب فى التاريخ] ٨١ : ٨٢

فهل تتماثل ، أو تتقارب عنده السجايا الخلقية للعرب واليهود ، فيجوز القول بوحدة عرقها ؟·

هنا يضطرب منطقه بين فكرة السامية الاسرائيلية التى نشبت فى الفكر الحديث ، وارتياب عقله فى صحة وجودها أصـلا ، برسوخ علمه فى دراسة العروق والاجناس : فهو يطلق الحكم عاما على الامم السامية ويقول بوثاقة القرابة بين العرب منهـا واليهود ، أو بنص عبـارته فى ترجمتها العربيـــة الامينـــة :

[واذا جاز لنا أن نحكم من خـلال مبادئنا الحاضرة على مبادىء الساميين السياسية والاجتماعية ، رأينـاها قبلية غير راقية · وذلك مع الاعتراف بأن الامم السامية أقامت **حضارات عظيمة** ، وأن ثلاثة مـن الاديان الخمسة أو السـتة التى تسود العالم ، وهى اليهودية والنصرانية والاسلام ، نشأت عن الفرعين الساميين : اليهود والعرب · وكانت **القرابة** بين اليهود والعرب **وثيقة** ، ودليل ذلك ما بين لغتيهما **وتقاليدهما** من تشابه] ·

مع اطلاق هــذا الحكم العام ، لا يلبث أن ينقضه من أســاسه ، بقوله مستدركا فى الفقرة التالية مباشرة :

[ولا جرم أن الشبه قليــل بين العــربى أيام حضــارته ، واليهودى الذى عرف منذ قرون بالنفــاق والجبن والبخل ، **وأن من الاهانة للعربى أن يقــاس باليهودى** ٠ ولكن لا ننسى أن طرق الحياة الخاصة التى خضع اليهود لحكمها منذ قرون كثيرة ، هى التى أنشأت منهم **عرقا ذليلا غير محترم** ٠ وعنــدى أن كل أمة تكون عرضة لمثــل ما أصاب اليهود ، ولا تعرف عملا لهــا غيــر التجارة والربا ، وتحتقر فى كل مكان ، وتنتقل اليها تلك **الغرائز المنحطة** بالوراثة المتتــابعة مدة عشرين قرنا ـ وأكثر ـ **فتتأصل** فيها ، تصير الى ما صار اليه اليهود لا محالة] ٠ ٨٤

عندئذ يتحرر عقــل « لوبون » ومنطقه من سلطــان الارومة الســامية الجــامعة بين اليهود والعرب ، فيرفض له ايمانه بالســجايا الخلقية أساسا لتمييز العروق البشرية ، رفضا تاما باتا ، أن تكون هناك أدنى شبهة من قرابة هذا العرق اليهودى الجبان الذليل المحتقر الذى تأصلت فيه الغرائز المنحطة بالوراثة المتتابعة قرونا ، والعرق العربى المشهود له بالنخوة والمروءة والكرم ونبل السجايا ٠ واستظهر لهذه الشهادة بعلماء من قومه الاوروبيين ، ليسوا عنده موضع اتهام ٠ فنقل عن « هيردر » قوله فى البدو من العرب ـ لا العربى أيام حضارته ـ :

« وهم على ما يظهر ذوو فتوة خالدة ، يقدرون بها على القيام بجليل الاعمال عندما يؤمنون بمبدأ » ، ثم يضيف لوبون !

[وهم أحــرار كرام ، شم الانوف غضــاب مقــاديم ٠٠٠ والاعرابى نشيط ، صبور ، محب للحرية ٠ والحرية هى الامــر الوحيد الذى اتفق له أن يتمتع به ، وهو محارب ، يحارب حاقدا

كل من يحاول استعباده ‧‧ وهو قاس على نفسه ، صارم ، ولوع بالانتقام فى الغالب ـ ممن يمس كرامته وحريته ـ وترى الاعراب متماثلين كذلك فى أمور العز والشرف ‧ لتماثل أحوالهم ومشاعرهم ‧ ويقوم فجرهم على السيف والنجدة والقرى والبلاغة : فبحد السيف يصونون حقوقهم وحرماتهم ، وبالقرى يتجلى كرم أخلاقهم ، وبالبلاغة يحسمون ما لا يقدر عليه السلاح من الخصومات] ‧ ـ ٩٢

ونقل عن « ديفرج » فى فضائل الاعراب :

[من تلك الفضائل أن الاعرابى المحارب المتعطش للسطوة والانتقام ، والذى يفعل عند مس كرامته ما لم تسمع به أذن من ضروب القسوة ، مضياف كريم ، أنيس فى مضربه ‧

[ومنها أن الهضيم الذى يضع نفسه تحت حماية الاعرابى أو يصبح فى جواره ، ولو كان من أعدائه ، يعد من أفراد أسرته فلا يستطيع أحد بعدئذ أن يعتدى على حياته المقدسة التى يدافع عنها مجيره أكثر مما يدافع عن نفسه ، وان ظهر له أن هذا المستجير به ، من أعدائه الذين تمنى سحقهم مائة مرة ‧‧ والكرم أفضل فضائل العرب ، ويعدونه أخص ما اتصفت به أمتهم » ‧

ونتبه هنا على أن الاعرابى فيما يصف « لوبون » من سجاياهم ليسوا بدو الجزيرة العربية وحدهم ، بل فى عامة الشعوب العربية ، بصريح قوله فى سياق ما نقلناه آنفا من شهادة لهم :

[ان الاعراب من سكان جزيرة العرب وسورية وافريقية ، يحبون الحرية حبا جما لا يقدر الاوروبى أن يتصوره ‧ وهم يرونها أغلى شىء ‧ وقد حافظوا عليها بتوالى الاجيال ، ولم يقدر جميع الغزاة من الاغريق والرومان والفرس وغيرهم من الامم

التى دوخت العالم ، أن يعبدوهم ، وكل قهر لهم لا محالة زائل ·
والقهر اذا ما وقع ، كان على أيدى أعراب منهم ، فلا يفل الأعراب
الا الاعراب · ويرجع حبهم للحرية الى أقدم عصور التاريخ ، فقد
روى « ديو دورس الصقلى » أن الانباط - وهم من بلاد الحجـر
العربية : بطرا - كانوا يمتنعون من بذر القمح وغرس الاشجار
وبناء البيوت ، لما فى هذه الاعمال من ذرائع التضحية بالحرية ،
ولذلك لم يستذل الاعراب أحد] · - ٧٣١

وختم « لوبون » تأريخه لحضارة العرب ، بهذا الحكم على سـجايا
الامة العربية بوجه عام :

[واذا قابلنا بين العرب والامم الاوروبية ، بدلا من قياسهم
بالامم التى غابت عن مسرح العالم ، أمكننا أن نقول انهم أرقى
من جميع أمم الغرب التى عاشت قبل عصر النهضة ، أخـــلاقا
وثقافة · فلم تعرف جامعات القرون الوسطى ، لقرون كثيرة ،
مصدرا غيـر مؤلفاتهم ومناهجهم ، وكـانت أخـلاقهم أرقى من
أخلاقنا بمراحل] · - ٧٣٦

وهان عليه مع ذلك ، والسـجايا الخلقية أصح مقيـاس عنده لتمييز
العرق ، أن ينمى العرب وهذه أخلاقهم وسجاياهم ، الى عرق سامى ينتمى اليه
اليهود الذين شهد عليهم بما شهد !·

ولم أنقل ، مع ما نقلت من شهادته ، ما أضاف اليها من حواش طوال ،
سجل فيها ما رأى عصره - القرن التاسع عشر - من مظاهر احتقار الامم ،
الفرنجة والعرب ، لهذا العرق الخبيث المنحط الغرائز بطبعه ووراثته · - ٨٤

●●●

ليس غريبا اذن ، وقد سيطرت فكرة السامية على المؤرخين الاوروبيين ، أن تابع العلماء هذه المقولة الاسرائيلية بدراسات لما بدا لهم من ظواهر التشابه المدعى بين العرب وبنى اسرائيل ، وجهها الاستشراق الى تأصيل القرابة المدعاة ، مع التركيز بوجه خاص ، فى أول الامر ، على الحجاز مهد الاسلام ، وقريش صفوة العرب العدنانية ، وفيها نسب نبىالاسلام عليه الصلاة والسلام، وعلى اليمن منزل العرب القحطانية الصميمة العاربة :

فى الربع الاول من هذا القرن العشرين ، نشر المستشرق « دوزى » ـ صاحب المعجم المشهور ـ كتابه (صلات بين العرب وبنى اسرائيل) تحدث فيه عن ملامح متشابهة بين قريش واليهود ، وادعى « أن مكة وعمرانها الوثنى وتقدم قبائلها فى الجاهلية على غيرها من قبائل العرب ، انما جاءها من بطون شمعونية اسرائيلية » ٠

ونشر « مرجليوت » كتابه عن بنى اسرائيل ومكة ، ذهب فيه الى أن « الوطن الأصلى لبنى اسرائيل كان بلاد اليمن ٠ ومنها خرجت هجرات قديمة الى شمال بلاد العرب » ٠

عنى بتلك الهجرات ، هجرات عرب الجنوب القحطانية العاربة بعد تصدع « سد مأرب » الى شمال الجزيرة العربية ٠ ومنهم كان أمراء الغساسنة والمناذرة ، وبنو قيلة : الاوس والخزرج الذين عمروا يثرب ٠

فلما بعث المصطفى عليه الصلاة والسلام ، كانوا **الانصار** ٠

أما دليل « مرجليوت » على دعواه التى تنسب عرب الجنوب القحطانية العاربة الى بنى اسرائيل قبل هجرتهم من اليمن الى الشمال ، فبعض ألفاظ التقطها من لغة « سبأ » البائدة تشبه ألفاظا عبرية ، وبعض عادات دينية قال انها متشابهة عند بنى اسرائيل وقبيلة سبأ من العرب البائدة ٠

●●●

وكذلك أخذت اللغة العبرية مكانها فى اللغات السامية ، أختا للعربية ؛ بما كشف علم اللغات ـ فيما علمنا المستشرقون ـ من « أن أمما ذات لغةواحدة كانت تسكن البقاع الواقعة بين القفقاس وجنوب بلاد العــرب • ودل درس اللغات الســامية أن لغــات تلك الامم ، وهى العبرية والفينيقيــة والسريانية والآشورية والكلدانية والعربية ، وثيقة القرابة متحدة الاصل » •

وألح « دوزى » فى رد ألفــاظ عربية الى نظــائر وأصــول عبرية ، فى (معجمه) الذى قدم الينا ، عمدة ومرجعا فى فقه لغتنا ، عزل الطلاب الا القلة النادرة الراسخة فى المدرسة الاسلامية ، عن فقهاء العربية الذين قدمتهم الينا هذه المدرسة ، وغض من قيمة تراثهم العتيق الذى طالما اعتززنا به ، مثــل مخصص ابن سيده ، وخصائص ابن جنى ، وفقه اللغة للثعالبى والاضداد لابن الانبارى ، ومقاييس اللغــة والصاحبى فى فقه اللغــة لابن فارس ، والفروق اللغوية لابى هلال العسكرى •

●●●

وكان طبيعيا أن تجارى جامعاتنا العصرية تقدم علم اللغات فى الغرب ، فتستحدث دراسات سامية لم يسمع علماء سلفنا بها ، وتستقدم من مستشرقى اليهود فقهاء الساميات من يدرسونها لطلاب التخصص فى اللغة العربية •

فى مسمعى الان ـ وأنا أكتب هذا بالرباط فى يناير ١٩٧٤ ـ صدى باق من صوت معلمنا اليهودى « الاستاذ الدكتور يوسف شاخت » وهو يكشف لنا فى كلية الاداب بجامعة القاهرة ، عن أسرار فقه لغتنا العربية ، ويبهرنا بمــا فى جعبته من حيل لغوية ، أقنعتنا بأن العربية ليست الا مقلوب عبرية ، وأن العرب انما أخذوا اسمهم من عربة ، التى هى فى العبرية بمعنى الصحراء •

ووضعت بين أيدينا ، محاضرات لسلفه اليهودى « اسرائيل ولفنسون » أبى ذئيب ـ فيما كنه نفسه ـ ألقاها على الطلاب الذين سبقونا الى الجامعة (١٩٢٧ ـ ١٩٢٩) ونشرتها لجنــة التأليف والترجمــة والنشر بالقــاهرة ،

مجموعة فى كتاب (تاريخ اللغات السامية) (١) ليقرأها أفواج من الطلاب الذين لم يسعدهم الحظ بلقاء المعلم اسرائيل أبى ذؤيب ، والتلمذة عليه ! وليقرأها غير الطلاب من مثقفى الجيل ٠

نقرأ هذه المحاضرات ، فنرى اليهودية اختلطت فيها بالعربية ، لطول ما ألح فى تقرير وحدة أصلها السامى ، فما نكاد نميز فيها الحد الفاصل فى تصور هذا المعلم الفقيه ، بين السامية واليهودية ، ولا بين العربية والعبرية . فى مثل قوله :

[ان الجزيرة العربية كانت وطنا مشتركا لجميع الامم العبرية والكنعانية] فأين العربية فى جزيرتها ؟

[وان انتشار الكنعانيين فى بابل ، بعد أن انتشروا فى سورية وفلسطين ، كان له تأثير عظيم فى حضارة بابل : فقد أدخلوا الى البلاد بعض عقائدهم ، كما كان للغتهم نفوذ كبير فى تلك البلاد] ٠

ولم يشر من قريب أو بعيد الى الاسر البابلى ، بل انطلق من هذه المقدمة ، الى دعواه الجريئة التى ترد الى أسلافه أعرق حضارة عرفهاالتاريخ لشرقنا الآسيوى ، وأقدم شريعة وضعية له ٠ فهو **يفترض** أن اسم :

[حمورابى مشتق من لفظ : عموربى ، وهو تركيب مزجى معناه كمعنىاللفظ العبرى : اشربى ٠ وقد وجداسم «**الملك عمرى**» **الاسرائيلى** ، فى الخطوط المسمارية يكتب : حمرى] ٠

---

(١) طبعته اللجنة فى مطبعة الاعتماد بالقاهرة سنة ١٩٢٩ ، ومنها أنقل نصوص أقواله مذيلة بأرقام صفحاتها فى هذه الطبعة ٠

ونشرت له اللجنة أيضا ، كتاب (تاريخ اليهود فى جزيرة العرب) المشحون بإسرائيليات فاحشة !

هذا الافتراض القائم على مجرد ملحظ ابدال حرف الحـاء بالعين فى كتابة اسم « عمرى الاسرائيلى » : حمـرى ، لم يلبث أن صـار عنـد المعلم « اسرائيل أبى ذؤيب » حقيقة تاريخية ثابتة ، فأخذ من مقدمتيه ـ التأثير العظيم للكنعانيين فى بابل ، ووجود اسم « حمرى » فى المسمارية والفرض أنه ملك عمرى الاسرائيلى ـ أخذ من هـاتين المقدمتين الهزيلتين المغلوطتين ، هـذه النتيجة المقررة عنده بالضرورة :

[ولشريعة حمورابى الكنعانى قيمة تاريخية عظيمة ، فوق قيمتها الحقيقية ، لانها تمثل لنا عقلية بابل **وشومر** من ناحية ، وتدل على الروح التى كانت للكنعانيين ـ اليهود ـ من جهـة أخرى . وهى أقدم شريعة فى تاريخ التمدن البشرى] ـ ٢٦

هكذا شد أبو ذؤيب ، « حمورابى » من الكنعانيين ، الى بنى اسرائيل ، بحرف الحـاء التى لابد أن تكون مبدلة من العين ، اذ وجـد اسم « عمرى الاسرائيلى » مكتوبا : حمرى ، فى الخط المسمارى !

وكما ارتبطت العبرية بالكنعانية .

[وترتبط ـ كذلك ـ كلمة عبرى بكلمة عربى ارتباطا متينا ، لانهما مشتقان من أصل واحد ، وتدلان على أصل واحـد ... ولان بنى اسرائيل حين جاءوا بلغتهم العبرية من **الجزيرة العربية** ـ موطنهم الاصلى ـ كانت مميزات الحياة الصحراوية بارزة جدا فى هذه اللغة ، وقد توارث الاسرائيليون هـذه المميزات الى أن استوطنوا **فلسطين** ، فلم يكونوا يستنكرون على الادب أن يستعمل التشبيهات الصحراوية ، والخيال البدوى ...] ـ ٧٩٠

ومضى « اسرائيل ولفنسون » ، أبو ذؤيب ، لا أدرى الى أين ...

وذهب من بعده « الدكتور يوسف شاخت » ليأخذ موقعه القيادى فى « ليدن » عاصمة الاستشراق ، حيث يشرف على نشر طبعات جديدة من (دائرة

المعارف الاسلامية) ذات التأثير النافذ في الفكر الغربى الحديث ، ويبث فيهـا ما شاء من اسرائيلياته ٠

وبقيت الساميات فى الجـامعة المصرية الام ، يتولى أمرهـا « الاستاذ الدكتور مراد كامل : رئيس قسم اللغات السامية بآداب القـاهرة ، وعضـو مجمع اللغة العربية ، والمجمع العلمى المصرى ٠

وينقل الاستاذ الدكتور فيما ينقل من المقولات السامية (١) :

[**اتفق العلماء** على أن موطن الشعب السامي فيالعصور التاريخية القديمة ، كان شبه الجزيرة العربية ٠ ومنها خرجت الهجرات السامية :

الاول نحو العراق ، من ابتداء الالف الرابع قبل الميلاد ، وهى الاكدية ٠

والثانية حوالى سنة ألفين قبل الميلاد ، وهى للكنعانية ٠

والثالثة حوالى سنة ألف وخمسـمائة قبـل الميـلاد وهى الآرامية ثم الهجرة الرابعة وهى العربية ، وتمثل أقوى الهجرات السامية ، ونحن نعرف تفاصيلهـا التـاريخية ، والاسباب التى دعت اليها ٠] ـ ٢٩

الكلام عن هجرات سامية خرجت من شبه الجزيرة العربية ، فالى أين خروج هذه الهجرة السامية الرابعة ، وهى العربية ؟ ومن « نحن » الـذين [نعرف التفاصيل التـاريخية] لخروج الهجرة العربيـة من شبه الجـزيرة

---

(١) من تعليقه على كتاب جورجى زيدان : (اللغة العربية كائن حى) فى طبعته الجديدة لدار الهلال بالقاهرة ٠

والارقام تحدد مواضع ما ننقل للدكتور مراد كامل ، من هـذه الطبعة الجديدة ٠

العربية ، كما خرجت الهجرات السامية الثلاث ، الاكدية والكنعانية والآرامية ؟

وكيف « اتفق العلماء على أن الجـزيرة العربية كانت موطنا للشـعب السامى » وهذه الفقرة المقول فيها باتفاقهم ، مصدرة فى الصفحة قبلهـا ، باختلاف العلماء على مهد الساميين ؟ وهذا نص عبارة «الدكتور مراد» فيها :

[ذهب العلماء مذاهب شتى فى المهد الاصلى للساميين فى عصور ما قبل التاريخ · وقد حاول أصـحاب كل نظرية أن يأتوا بأدلة تثبت رأيهم ، منها جغرافية ومنهـا لغوية ومنهـا ما يختص بالجنس ، ومنهـا ما فسروا به التوراة · فمن قائل : ان مهـد الساميين الاصلى فى بلاد أرمينية ، ومن قائل : أنه شمال افريقية ومن قائل أنه شبه الجزيرة العربية ، ومن قـائل : انه مـا بين النهرين ، ومن قائل : أنه بلاد العموريين فى سورية] ٢٨

بعدها ، فى الفقرة التالية ، آل هذا الخـلاف على خمسة مواطن لمهـد الساميين ، الى [اتفق العلماء على أن جزيرة العرب ، الموطن الاصلى للشعب السامى] !

●●●

وجذبت نظرية السامية عددا من مؤرخينا المحدثين ، بما تقرره من وحدة الاصل لكل شعوب وطننا ، فوجدوا فيها ما يستجيب لعاطفتنا القومية ، وعكفو على دعمها بدراسات تاريخية وجنسية ترجع بشعوب الوطن العربى فى المشرق والمغرب ، الى جنس سامى واحد موغل فى أعماق الماضى السحيق (١) ·

عن ايمـان منهم بأنهم يخدمون الوحدة العربيـة بهـذه الفروض التى

---

(١) أنظر مثلا : محمد عزة دروزه : تاريخ الجنس العربى — ط بيروت · عبد العزيز بن عبد الله : تاريخ الحضـارة المغربية — ط السلمى ، بالـدار البيضاء ·

لا ندرى ، ولا يدرى علماء الساميات أنفسهم ، حلقات اتصالها فى قديمها التائه المجهول ، بسام بن نوح ، دون حام أو يافث ٠

ويشقون على أنفسهم بجهد مضن فى تتبع نسبنا الى الجد سام ، يغنى عنه أن ليس بين سام وأبيه الا جيل واحد تلتقى عنده كل السلالات والعروق التى وزعوا عليها أجناس البشر ، فما هو الا أن نرجع بسام وأخويه الى أبيهم نوح ، حتى تجتمع البشرية فى أصل واحد لاب واحد ، من ولد آدم وحواء !

أواصر وحدتنا حقيقة مشهودة ثابتة بالواقع التاريخى ، وليست من الوهن بحيث يعوزها أن تلتمس لها مثل هذه الفروض الموغلة فى غيابات ما قبل التاريخ ، ونغفل عما وراء هذه الفروض التى أخذت صفة علمية ، من اسرائيليات بث فيها اليهود ما أرادوا من مقولات عن أصالة الوجود اليهودى فى جزيرة العرب ، وأن بطونا شمعونية كانت السبب فى عمار مكة بالجاهلية، وأن آخرين منهم يدين لهم التاريخ بأعرق حضارة فى الشرق الآسيوى ، وبشريعة « حمورابى » الذى لابد أن يكون اسمه « عموربى » مثل الملك عمرى الاسرائيلى !

ونلقى عالم اليوم ونحن نحمل بالسامية التى تنمينا واليهود الى أرومة واحدة ، أوزار هؤلاء الذين عرفتهم الدنيا والتاريخ أعداء للبشر ٠٠

ونواجه صراع البقاء ، وعلى أصولنا ظل يهودى قبيح ، تنكره طبيعتنا وأعراقنا ويرفضه تاريخنا ، ويأباه التنافر بين سجايانا المشهود لها بالنخوة والكرم والمروءة والشرف ، « وغرائزهم المنحطة التى تأصلت فيهم بالوراثة قرونا وأحقابا » ٠

وتنفيه دماؤنا التى لو سيط بها دم يهودى ، ★ تزايلن حتى ما يمس دم دما ★

كما قال شاعرنا « المتلمس » من العصر الجاهلى ٠٠

ويقتنع عالم اليوم بأن العرب وبنى اسرائيل أولاد عم ، تربطهم أواصر

الرحم والقربى المشدودة الى عرقهم السامى الذى يوغل جذره فى أعماق بلاد العرب ٠

ونحن نتطوع فنقدم الى هذا العالم ، وثائق اعتراف بأبناء عمومتنا ، أحدثها فيما قرأت ، مقال للسيد « محمود دياب » نشر فى اليوم السابع من شوال سنة ١٣٩٢ هـ فى العدد ٣٠٢ من (مجلة العالم الاسلامى) التى تصدر بمكة المكرمة ، منزل الوحى ومهد النبوة وقبلة المسلمين ومثابة حجهم ٠

وعنوان المقال لافت : (صلة اسرائيل بأرض فلسطين ، صلة وهمية)٠

والفكرة فيه أن اسرائيل التى ينفى الكاتب صلتها بفلسطين ، هى جماعات الطارئين عليها ممن يدينون بالصهيونية ، أما غيرهم من اليهود **الاصليين** فهم منا ، وان حاولت الصهيونية العالمية **أن تفرق بيننا** (؟!) أو تبقى عبارته فى ختام مقاله :

[ان جميع القبائل التى نزلت أو مرت بفلسطين ، سواء كانت كنعانية أو فينيقية أو بابلية أو أشورية أو كلدانية أو مصرية، هى عربية **سامية** ٠ ولقد عشنا عمرنا فى هذه الارض ٠ واذا كانت الصهيونية العالمية تريد أن تفرق بيننا وبين اليهود الاصليين، بالطارئين من اليهود فهم ليسوا منا ٠ **الاصليون أبناء عمومتنا** ، أما اليهود الحاليون الذين يدينون للصهيونية العالمية بالوفاء ، فليس لهم صلة بنا ولا **باليهود القدامى**] !

اللهم عفوك ورحمتك ! عالم اليوم ليس بحيث يجوز عليه هذا المنطق فى التفرقة بين يهود ويهود ، والقول بأن الطارئين منهم **لا صلة لهم بالقدامى** !

كلهم عرب ساميون أبناء عم باعترافنا ، ولا أصل لاى يهودى فى بلاد الغرب ، بل أصلهم فى بلاد العرب بشهادة شهود من أهلها أنها الموطن الاصلى للعرق السامى ، من بابل الى مصر ، من الفرات الى النيل ٠٠٠

ويتهيأ المناخ العام لغرس بنى اسرائيل فى أرض العرب حيث بنو عمهم ولد سام بن نوح ، وتتآزر قوى العصر على ارجاع المشردين من منازح غربتهم

فى شتى بقاع الدنيا ، الى أرض الميعاد من النيل الى الفرات ٠

وأعود على بدأ فأعجب : يطارد ساسة الغرب بتهمة العـداء للسـامية كلما بدرت من أحدهم بادرة تردد فى الاقرار بشرعية القرصنة الاسرائيلية ٠

ولا يسأل سائل : فيم لا يطـارد القراصنة الصهيونيون بتهمة العـداء للسامية العربية ؟

وفيم لا يؤخذ بها الساسة الامريكيون ، فى تحديهم الجرىء ، المعلن لكل قرار دولى يعترف لعرب فلسطين بشرعية حقهم فى وطنهم المغتصب ؟

أو ليسوا واليهود أبناء عم يمتون بعرق واحـد الى « سام بن نوح » بقرار من علماء الساميات واليهودية العالمية !؟

المبحث الـــــرابع :

الاسرائيليـــــات ••

فى الموقع الدينى ••

غزو الاسرائيليات لفكرنا الدينى ، كان أشد وطأة وأخبث مسربا وافدح نكرا ٠٠٠

ويمكن القول بأن حركة غزو الاسرائيليات للمجال الفكرى بعامة ، وللموقع الدينى بخاصة ، مرت فى ثلاث مراحل :

أولاها : كانت لأحبار يهود فى عصر المبعث ، ممن « تعوذوا بالاسلام ـ بعد الهجرة ـ وتظاهروا بالدخول فيه نفاقا يكيدون له » فبثوا فى الفكر الاسلامى اسرائيليات من تراثهم الدينى وأسطوريات أسلافهم ٠

والثانية : تولى أمرها يهود المستشرقين الذين تخصصوا فى دراسة الاسلام ، فوثقوا مدسوس الاسرائيليات بردها الى مصادر من كتبهم ٠ ثم أضافوا اليها على سبيل الشرح والتفسير والتعليق ، شحنة من مقولات بثوها فيما نشروا من بحوث ودراسات اسلامية ، سيطروا بها على الفكر العربى الحديث ٠

والثالثة : تكفل بها دعاة من قومنا ، تلاميذ مدرسة الاستشراق ومن تأثروا باسرائيلياتها عن فتنة واستهواء أو عن هوى وضلال ٠ فكانوا هم الذين حملوها الينا بطريق الاخذ والنقل والاقتباس ، وروجوا لها فى الفكر العام ، القديم منها والحديث ٠٠٠

وأقول : القديم منها والحديث ، وما يغيب عنى كلام يتردد اليوم عن الحاجة الى تنقية تراث السلف ، فى التفسير بخاصة ، من الاسرائيليات ، وكأنها وقفت عند قديم المدسوس منها ، لم تتجاوزه الى وجودنا المعاصر ، بأخبث الذرائع وأخفى المسارب ٠

ولو أن الامر فى الاسرائيليات اقتصر على قديمها فى تراث السلف من المفسرين لهان : فالذى فيه منها لا يعدو أن يكون اضافات وزوائد هامشية على سبيل الاستطراد والتزيد بما راج قديما فى البيئة الاسلامية من أقوال أهل

الكتاب ، ولم يحدث قط أن ربط مفسر بين آية قرآنية ، ومرجع معين من مصادر الاسرائيليات التى قد يرويها فى تفسير الآية • ثم ان كتب المفسرين القدامى ليست فى متناول العامة من أبنـاء الامة ، بل يتداولهـا خاصة الدارسين من علماء القـرآن وطلاب المدرسة الاسـلامية ، وليسوا بحيث يفوتهم ، اذا صح النظر وسلم المنهج ، التنبه الى أى تأويل أو اضافة تفسيرية لا يقبلها صريح نص الآية لفظـا وسياقا • ونحن بعـد فى منطقة الامان ، مع الكتاب المحـكم لا يمسه أى تحريف أو تبديل •

جديد الاسرائيليات هو الخطر !

اذ نفذت الى فكرنا الدينى الحديث بأساليب متطورة ، وأخـذت دورها الماكر فى الغزو التبشيرى والالحادى • بتوجيه اليهودية العـالمية • وعكف مستشرقوها على ما دسه أسلافهم على التفسير يردونه الى أصوله ومصادره من تراثهم اليهودى ، منطلقا الى دعواهم الفاحشة : ان الاسـلام مأخوذ من كتب بنى اسرائيل !

واستدرجوا منا من روجوا لهذا النمط المتطور منالاسرائيليات ، فراحوا يشـدون آيات من القرآن فى قسر واعتساف ، الى نصوص بعينهـا من تراث القوم ، ثم ينشرون هذه التأويلات فى كتب عصرية ، على ما سوف نعرض له عن قريب بمزيد بيان •

●●●

هكذا من عصر المبعث ، وعلى التحديد من السنة الاولى للهجرة ، الى يومنا هذا ، لم تفتر الاسرائيليات عن نفث سمومها فى الفكر الاسلامى •••

وعلى ذلك المدى الطويل ، تطورت حركتها مع مقتضيات الزمان والمكان ودواعى الظروف والاوضاع •

وتغيرت كذلك ذرائعها وجنودها الذين يبثونها فى الفكر العام ••

فى الـدور الاول ، عصر المبعث ، بدأت حملة الاسرائيليات بجـدل لنبى الاسلام صلى الله عليه وسلم ، من أحبار اليهود الذين كانوا وقتئذ ناشبين فى دار الهجرة وما حولها من شمال الحجاز ، قصدا منهم الى اعناته صلى الله عليه وسلم ، ودعما معنويا لجبهة المشركين من قريش وسائر العرب ضـــد الاســـلام ، واستهواء لمنـافقين من أهل المدينة طالت مخالطتهم اليهـــود فى الجاهلية ، واضطروا الى الدخول فى الاسلام تقية ومدارارة ، ومسايرةلقومهم المؤمنين الانصار ٠

وفى (السيرة النبوية لابن هشام) (١) تفصيل لحملة الجدل الـدينى التى شغلت المجتمع المدنى فى السنة الاولى للهجرة وصدر السنة الثانية ٠ وقد خابت هـذه الحملة ، لم تجد على اليهـود شيئا ، فكان أن [تعوذ نفـر منهم بالاسلام ودخلوا فيه نفاقا يكيدون له] بنص‌عبارة « ابن هشام » وقد ذكر عددا منهم بأسمائهم وانبثوا فى المجتمع الاسلامى بدار الهجرة ، يخالطون أهله ولا يملك أحد أن ينفيهم عن الاسلام وقد نطقوا بشهادته ٠ والذين لقوا منهم النبى صلى الله عليه وسلم ، غدوا من الصحابة الذين ترجع اليهم الامة فى الســنة النبوية ٠

وبهؤلاء اليهــود الذين دخلوا فى الاســلام ـ الله أعلم بقلوبهم ـ بدأت مقولات اسرائيلية تشوب تأويلهم للقرآن ٠ وكانت الثغرة التى تسللت منهــا تأويلاتهم ، أن القرآن يحمل قصص الغابرين وأخبار القرون الخالية ، تركيزا على ما هو منها موضع العبرة وجوهر الموقف ٠

---

(١) الجزء الثانى : ص ١٩١ وما بعدها ، ط الحلبى ٠ وأنظر معه كتابى (أعداء البشر) ص ٩٥ ! ١٠٦

وفيه كذلك آيات متشابهات ، فى غيبيـات ما كان للمسلمين أن يعلموا عنها الا ما جاء فى القرآن الكريم ٠

وهؤلاء اليهود أهل كتاب ٠٠

وقد تضخم ميراثهم من المقولات الدينية ٠ واذ يجب الاسلام ما قبله ، لم يسترب عـامة المسلمين فيمن أسلموا من اليهود ، وألقوا السـمع اليهم وهم يتفننون فى سرد حكايات مثيرة وتفصيلات خلابة ، تأويلا للمتشابه ولما اكتفى القرآن بذكر مجمل عبرته ٠ ولم يتميز فى هـذه التأويلات ما هو من المرويات الدينية ، عمـا هو من أسطوريات خرافية شحنت بها العقلية الاسرائيلية فى تيهها القديم وتشردها الطويل ٠

ومن أوائل العهـد المدنى ، حيث خالط اليهـود المهاجرين والانصـار ، تتابعت آيات القرآن تحذر المؤمنين من شر أولئك المزيفين المرابين ٠

« أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون » ؟ البقرة : ٧٥

« ومنهم أميون لا يعلمون الكتـاب الا أمـانى وان هم الا يظنون ٠ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هـذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون » البقرة ٧٨ : ٧٩

« وان منهم لفريقـا يلوون ألسنتهم بالكتـاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ، ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » آل عمران : ٧٨

لكن يبدو أن المسلمين فى عصر الصحابة والتابعين ، كانوا مطمئنين الى كونهم بمنأى عن الخطر ، اذ القرآن موثق محفوظ ، نصا ورسما وقراءة ، فلا بأس عليهم من سماع تأويلات لاهل الكتاب ، لا يمس القرآن منها أى تحريف أو تبديل ٠

وهون عليهم أمرها ، أنها لم تكن تدون ، وأن العقيدة الاسلامية فى اقرارها لحرية العقل والفكر ، لم تأخذهم بحظر تراث الملل والعقائد قبلها أو مصادرته • بل وجد اليهود منفذا اليهم من الايمان بأن القرآن مصدق لما سبقه من رسالات الدين جميعا • والقرآن وان حذر المسلمين من مفتريات أهل الكتاب ، لم يحرم عليهم سماع أقوالهم • ونبى الاسلام عليه الصلاة والسلام ، لم ينه أصحابه وأمته عن سماعها ، وانما نهى عن العمل بها • فكيف اذا جاءت الاسرائيليات مروية عمن دخلوا فى الاسلام من يهود عصر المبعث ؟

ثم ان المسلمين كانوا ينظرون الى هذه الاضافات المروية عن أهل الكتاب فى تأويل القرآن بما ليس فيه ، على أنها من القصص الدينى لا التفسير • ولم يسموا من يحكيها مفسرا ، وانما هو قاص • تحديدا لصفته بما يخرج حكاياته عن نطاق التفسير •

وجاء عصر التدوين والتصنيف ، يجمع كل المرويات فى التفسير والتأويل ، وفيها اسرائيليات مروية عن صحابة يتحرج المسلم من اتهامهم ، ويتقى التورط فى القطع بالحكم عليهم : أيهم دخل فى الاسلام مؤمنا به ، وأيهم ممن تعوذوا بالدخول فيه نفاقا يكيدون له •

[وعن هذا الطريق ، دخل الاسلام وتسرب اليه كنز كبير من القصص الدينية] لبنى اسرائيل ، كما صرح المستشرق اليهودى « أولد تسيهر » (١) •

ويقال مع ذلك ، انه من جيل الصحابة ، كان التنبه الى خطر تأويلات أهل الكتاب ومدوناتهم التى شغلوا بها عن التوراة وأحلوها مكانها ، وشهد عليهم القرآن أنهم « **يقولون هو من عند الله وما هو من عند الله** » •

---

(١) (العقيدة والشريعة فى الاسلام) ص ٤٣ من الترجمة العربية ــ دار الكتاب المصرى بالقاهرة ١٩٤٦

وفى الخبر أن أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » أشير عليه بجمع السنن النبوية وتدوينها ، بعد أن تم فى عهد الخليفة الاول أبى بكر ، جمع القرآن من صحفه المتفرقة ، فلا خوف من التباس آية منه بمدون السنة ٠ فاستشار « عمر » الصحابة فأشار عامتهم بذلك ٠ لكن صدره لم يشرح له ، ولبث شهرا يفكر ثم قال للصحابة :

« انى ذكرت لكم من كتاب السنن ما قد علمتم ٠ ثم تذكرت فاذا أناس من أهل الكتاب قد كتبوا مع كتاب الله كتبا ، فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله ٠٠ »

وفى (كتاب الشهادات) من صحيح البخارى ، أن « عبد الله بن عباس » قال :

[يا معشر المسلمين ، كيف تسألون أهل الكتاب فى دينكم] (١) ٠

ونقل « الزمخشرى » فى تفسير (سورة هود) بالكشاف ، أن « الحسن ابن على » رضى الله عنهما سمع « قتادة » يقول فى تأويل آية منها : « الرواية المتفق عليها عند أهل الكتاب » ٠٠٠ فرد عليه « الحسن » بقوله منكرا : « ومن يرجع فى دينه الى أهل الكتاب ؟ »

ومعروف لدارسى علوم القرآن ، ما كان من تحرج المسلمين فى العصر المبكر من التفسير ، وفيهم : أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وسالم بن عبد الله بن عمر ، والقاسم بن محمد بن أبى بكر رضى الله عنهم ٠ وفيما روى « الطبرانى » فى معجمه الكبير ، ونقله « السيوطى » فى (الاتقان) خبر « نافع ابن الازرق » حين سمع أن « ابن عباس » يجلس الى الناس فى مسجد المدينة

---

(١) رواه « الشاطبى » فى (الاعتصام : ٢٦) مختوما بقوله : ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم » ؟

فيفسر لهم القرآن ، فاقتحم عليه ابن الازرق مجلسه يريد أن يستوثق مما سمع، وكأنه أنكر تأويل كلمات الله بكلام البشر (١) ٠

وروى « أبن سعد » ما كان من رفض « عبيدة بن قيس الكوفى » التابعى ، أن يتكلم بشىء فى أسـباب النـزول ٠ قال لمن سأله فيها : « عليك باتقـاء الله والسداد ، فقد ذهب الذين كانوا يعلمون فيم أنزل القرآن » (٢) ٠

وذكروا فىترجمة « سعيد بن جبير » ــ منفقهاء التابعين ، ت ٩٥ هـ ــ أن رجلا سأله فى تفسير بعض آيات من القرآن الكريم ، فرد رحمه الله قائلا : « لان تقع جوانبى خير من ذلك » تهيبا وتحرجا وتقوى ٠٠٠

كانت وجهة نظر أولئك المتحرجين من التفسير فى العصور المبكرة ــ فيما أرجح ــ أن القرآن كتاب عربى مبين ، والعربية لغتهم ، فليسوا فى حاجة الى تفسير آياته المحكمات ٠ أما المتشابه مما استأثر الله بعلمه ، فلا يخوضون فيه٠ وأما ما أمسك القرآن عن ذكره فى خبر القرون الماضية أو الغيبيات ، فكيف يرجعون فيه الى ما لدى أهل الكتاب ، والله تعالى يقول للمؤمنين :

« وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا الله ان الله شديد العقاب »

ويقول لنبيه عليه الصلاة والسلام :

« قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لـكم انى ملك ، ان أتبع الا ما يوحى الى » الانعـام ٥٠ ومعهـا الاعراف : ١٨٨

---

(١) بتفصيل فى (الاعجـاز البيـانى ، ومسـائل ابن الازرق) ط دار المعارف بالقاهرة : ١٩٧٢

(٢) طبقات ابن سعد : ٦/٦٤ ط أوروبا ٠ وانظر (أسباب النزول) فى النوع الاول من (البرهان للزركشى) والنوع التاسع من (الاتقان فى عـلوم القرآن) للسيوطى ٠

انما ظهرت الحاجة الى التفسير بعد اتساع الدولة الاسـلامية وخروج العربية من جزيرتها مع الاسلام ، الى أقطار لم تكن العربية لسان شعوبها قبل أن تدخل فى الاسلام • فكانت المصنفات الاولى فى التفسير ، تجمع المرويات فيه بأسانيدها الى الصحابة •

كما احتاجت الامة بعد جيل الصحابة ، الى جمع السنة النبوية وتدوينها، فخضعت عملية الجمع لادق شروط النقد والفحص ، ومنها وضع علماء الحديث ضوابطهم الصارمة لتوثيق الاسناد وصحة الرواية وعدالة الرواة وضبطهم ، ناظرين فى ذلك كله الى حرمة السـنة : المفصلة لما أجمل القرآن ، والمصـدر الثانى للشريعة الاسلامية •

وأفلت مع ذلك الى كتب التفسـير والحديث مرويات صح اسنادها الى صحابة وتابعين ، من أمثال : كعب الاحبار والقرظى ووهب بن منبه وعبد الله ابن سلام •• وطائفة يهود أسلموا • وأكثر تلك المرويات ، مما لم يتعلق القرآن بذكره • وقد تنبه اليها المحققون من علماء الاسلام المشارقة والمغاربة ، وجاهدوا مستبسلين لتحرير الفكر الاسلامى من مقحم التأويلات الاسرائيلية •

لم يقصـدوا الى ما لم يبح لهم الاسـلام من حظر العلم بمـا لليهود أو غيرهم من مقولات دينية وغير دينية ، ولا جرأوا على الاعتداء على حرمة تراث السلف باعادة نشره بعد حذف ما فيه من تأويلات دخيلة ، كما يدعو بعضـنا اليوم ، عن جهل بقيمة هذه المرويات ، لا من حيث هى تراث فحسب ، بل مـن حيث هى كاشفة كذلك عن قديم غزو الاسرائيليات للفكر الاسلامى •

وانما كان جهاد علمائنا فى ميز الطيب من الخبيث ، والاصيل من الدخيل، وضعا للحدود الفاصلة بين ما فى القرآن وما ليس منه !

لم يغب شىء من تفصيل ما أجملت من ماضى الاسرائيليات ، عن يهود المستشرقين وهم يتأهبون لنقلها الى موضع جديد ، فى حركة مضادة لغيرة الامة على دينها ووثيق اتصالها بكتابه المحكم وسهر علمائها على نفى الاسرائيليات عن فهمه وتفسيره ·

المستشرق اليهودى « جولد تسهير » فى كتابه (مذاهب التفسير الاسلامى) (١) وقف طويلا عند المأثور من تهيب كثير من الصحابة والتابعين تفسير القرآن · ثم لما وصل الى ما يروى عن « الامام أحمد بن حنبل » : « ثلاثة لا أصل لها : التفسير والملاحم والمغازى » كتب معلقا بما أنقلمن نص كلامه :

[··· ينبغى بادىء ذى بدء أن نفترض كل شىء ماعدا القول بأن تفسير القرآن يعد عملا ذميما يتجنبه أهل التقوى والورع · التفسير الذى يرفضه الجادون من المسلمين ، بدا فى تحذير « أحمد بن حنبل » مقترنا فى مجموعة واحدة ، بالاساطير المحفوفة بالخرافات ··· مما يعوزه السند المؤيد الذى يتطلبه العلم الدينى الاسلامى منذ عهده المبكر – شرطا فىالمعرفة الجديرة بالوثوق · وفى تفسير القرآن بدا هذا النزوع الى القصص والاساطير فى دائرة خاصة : كان هناك ما ورد فى الكتبالسابقة على الاسلام من مختلف القصص التى أجملها محمد نفسه (؟!) بمنتهى الايجاز ، وأحيانا على وجه متداخل (٢) ، مما أراد

---

(١) فى الترجمة العربية للدكتور عبد الحليم النجار : ط الخانجى بمصر والمثنى ببغداد · والفقرات المنقولة منه هنا ، مذيلة بأرقام صفحات ورودها فى هذه الترجمة ·

(٢) ترى هنا ، وفى سائر ما كتبه هذا اليهودى عن القرآن ، أنه ينكره وحيا ويمضى على تقرير أنه من كلام محمد – عليه الصلاة والسلام – فهلا أنكر معه فى التوراة وموسى عليه السلام ، الوحى والنبوة ؟!

المسلمون أن يتعرفوا عنه خبرا قريبا ٠ فلا شك أنه أثار فضولهم وتطلعهم العلمى (؟!) الى حد أبعد من البيان الدقيق للتشريعات الفقهية (١) ٠ وقد طابق الطلب عرض غزير : فقد وجدت طائفة من **علماء الكتاب** الفضوليين ـ يعنى علمـاء القرآن المسلمين ـ الذين سدوا **ثغرات** القرآن بمـا تعلموه من القصص التى كثيـرا ما رددوها عن سوء فهم لها ، بنتاج خيالهم الخاص ٠ وأرسلوا كل ذلك على أنه تفسـير للقرآن ٠ رجـال من طابع « مقـاتل بن سليمان » ـ ت سنة ١٥٠ هـ ـ الذى ذكر فى تمييز خصيصته أنه : استمد علمه بالقرآن من اليهود والنصارى ، وجعله موافقا لما فى كتبهم ٠٠٠

[الى هذا ـ النوع من التفسير ـ يرجع الانذار والتحـذير من أهل الكتاب ٠ وقد زاولت **القصص** ـ الدينى ـ بمقدار مبالغ فيه حقا ، طبقة من أتقياء القصاص الذين ظهروا فى زمن مبكر ، وغلب على نشاطهم عنصر الخيال ٠ وقد اقترنت كراهية حفيد عمر ـ سالم (٢) بن عبـد الله بن عمر ـ لتفسير القرآن ، بأنه كـان لا يحب أن يستمع الى قاص الجماعة (ابن سعد : ١٤٨/٥) ٠

[وهؤلاء المفسرون المطلقون التصرف ، وسعوا أيضا نطاق المغازى ٠٠٠ وأسرفوا بطبيعة الحال ، فى تصوير اليوم الآخر بما استمدوه من المصادر الاجنبية وما أضافوه من ابتداع خيالهم ، وقدموا ذلك كله على أنه تفسير موثوق به للقرآن ٠٠٠ ٧٧

---

(١) من عجب أن يكون التعلق بقصص الغابرين ، من التطلع العلمى !! وأعجب منه القول بأن المسلمين ـ لا شك ! ـ شغلهم هذا الفضول ، أكثر مما شغلهم البيان الدقيق للتشريعات الفقهية ؟!

(٢) فى ترجمة الدكتور ألنجار (سليم بن عبد الله بن عمر) وأظنه من الوهم أو السهو فى ترجمة الاسم : Salim

[والى ابن عباس يرجع مقاتل بن سلمان فى تفسيره لآية الملك : « الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا » بأن الله خلقها جسمين فجعل الموت على هيئة كبش أملح لا يمر على شيء ولا يجد ريحه شيء الا مات ، وجعل الحياة على هيئة فرس بلقاء فوق الحمار ودون البغل ، وهى التى كان جبريل والانبياء يركبونها ، خطوها مد البصر ، لا تمر على شيء ولا تطأ شيئا ولا يجد ريحها شيء الا حيى - وهى التى أخذ **السامرى** من ترابها فألقاه على العجل - الذى أضل به بنى اسرائيل ففتنوا به وعبدوه . (١)

وجاء هذا النوع من التفسير المعتمد على الاساطير ، روى عن « عبد الله بن مسعود » أنه أعلن انكاره ومعارضته ، اذ يحارب المفسرين بالرأى ، ممن لا يريدون أن يتواضعوا فيجيبوا عن أشياء لا يدرى كنهها أحد ، بأن يقولوا : الله أعلم . ٧٨

[واطلاق اسم القاضى على الرجل الذى يريد أن يثبت علمه بالتفاصيل المجهولة لمثل آيتى الدخان (١٠ : ١٢) مما لم يذكره القرآن ، يمكن أن يقوم دليلا على نظرتهم الى تلك الاساطير المقرونة بالقرآن ، ووزنها فى تقديرهم . كما كان يرفض أخيرا التفسير الذى يجترىء على الخوض فى نطاق العقيدة ، اذ لم يأت القرآن لتقرن بالنص الالهى استنباطات نظريةفلسفية ، ولا ليضرب بعضه بعضا - فى الجدل الكلامى - بل المعول عندهم على كلمة القرآن : « واذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره » - الانعام ٦٨] .

---

(١) ذكر جولدتسيهر هنا من مراجعه الاسلامية لهذه الصورة الحيوانية: كتاب الحيوان للدميرى ، وصحيح البخارى ، كتاب التفسير (آية ١٦٧ من سورة مريم) والاحياء للغزالى (٤/٢٣) والاتقان للسيوطى .
فتأمل مدى ايغاله فى التقاط الاسرائيليات من تراث السلف !

ويكثر استعماله الخوض فى اعمال النظر والفكر فى مشكلات العقيدة ٠
أنظر عنوان رسالة الغزالى : (الجام العوام ، عن الخوض فى علم الكلام) ٨٠

«جولدتسيهر» فيما ترى ، كان على علم بما دسه أسلافه على تأويل القرآن ، من أساطير اسرائيلياتهم ٠ وعلى علم كذلك بمـا كان من تنبـه المسلمين فى عصور مبكرة ، لخطر هذه المدسوسات وتحذيرهم الامة منها ٠ لكن يهوديته تغلبه فى الاقرار بهذا الواقع التـاريخى ، فينفث من اسرائيلياته تأويل النهى عن الخوض فى آيات الله ، بحظر اعمـال النظر والفـكر فى مشكلات مسائل العقيدة ، ويؤيد هذا التأويل بعنوان رسالة الغزالى ، بما يوهم أن موضوع الرسالة حظر اعمال الفكر فى مسائل العقيدة وليس فى حظر خوض العـوام فيما لا دراية لهم به من دقائق علم الكلام ٠

وافتراء على المسلمين أن يقال انهم أنكروا اعمال النظر فى مسـائل العقيدة مثلمـا أنكروا تأويل القـرآن باسرائيليـات أهل الكتاب المشـحونة بالاساطير : والقرآن كلف أمته بالنظر والتفكـر فى آيات الله ، وأنكر تعطيـل العقل والبصر ، يمسخ انسانية البشر ويهبط بها الى دونية الدواب العجماء ! « ان شر الدواب عنـد الله الصم البكم الـذين لا يعقلون » ثم لم يلبث هـذا المستشرق اليهودى ، بعد أن نفث فريته ، أن ركز وطأته على الصحابى الجليل « عبد الله بن عباس » المشهود له بالامامة فى التفسير ، لينميـه الى المدرسة اليهودية ومعلميها أحبار عصر الصحابة ، مستظهرا لهذه المشـيخة اليهودية لابن عباس ، بنفر من المستشرقين المعروفين بضراوة حقدهم على الاسـلام ٠
قال :

[وابن عباس الذى يعد معجزة التفسير وبحر العلم وجبر هذه الامة ، ويسمى أيضا على وجه التفضيل : ترجمان القرآن ٠ كان أقصى ما بلغ من السن عنـد وفاة الرسول عليـه الصـلاة والسـلام ـ من عشر الى ثلاث عشرة سنة ٠ **وأجدر بالتصـديق** الاخبار التى تفيد أن ابن عباس كان لا يرى غضاضة فى أن يرجع

فى المسائل التى يخامره فيها الشك ، الى من يرجو عنده علمها ٠٠ وكثيرا ما نجد بين مصادر العلم المفضلة لدى ابن عبـاس ، اليهوديين اللذين اعتنقا الاسـلام : كعب الاحبار وعبـد الله بن سلام ٠ كما نجد أهل الكتاب على وجه العموم ، أى رجالا مـن طوائف أهل الكتاب التى ورد التحذير من أخبارها فى أقوال ابن عباس نفسه (البخارى : كتاب الشهادات ، رقم ٢٩) ٠

[ومن الحق أن اعتناقهم للاسلام قد سما بهم على مظنة الكذب ، ورفعهم الى مرتبة مصادر العلم التى لا تثير ارتيابا ــ وكان كعب الاحبـار يلقب بملجأ العلمـاء : الزرقانى على الموطأ ٤/١١٠ ط القاهرة سنة ١٢٨٠ ــ ولم يعـد « أوتو لوث «O. Loth»

الصواب اذ يتحدث عن ابن عباس ذات المسحة اليهودية !٠ ـــ٨٨

[ومذهب التفسير الـذى أقامه هذا الاب الاول لتفسير القـرآن « ابن عباس » والمحصول الذى تعلمه من أهل الكتاب ، قد بينه أخيرا على وجه ممتاز « ليونى كايتانى » فى (حوليات الاسلام) (١)
وانظر أيضـا « بوهـل F. Buhl فى مادة : عبدالله بن عباس من دائرة المعارف الاسلامية] ـ ٨٩

ويعترف « جولد تسيهر » بأن علم النقد الاسلامى نفسه ، وضع فروقا بين مراتب صحة الاسانيد الكثيرة التفرع عن ابن عباس ، وقد سميت احـدى سلاسل الاسناد للمرويات عنه سلسلة الكذب (سنن الترمذى (٢) : ٢/١٥٦) مما يدل على أن النقد الاسلامى لم يغب عنه احتمال أن كان هنـاك من حاول وضع مرويات متأخرة وزودها بحجية الاسناد الى ابن عباس ٠ ـ ٩٤

---

(١) : Leone Caetani : Anali del Islam, 1, 49, 51
(٢) فى ترجمة الدكتور النجار (صحيح الترمذى) والمعروف فى كتب الحديث الستة : سنن الترمذى ، فلعله من السهو ٠

لكنه لم يلبث أن أعطى ذلك الزيف قيمة نقدية ، فأطال النظر فى مرويات شديدة التناقض لا تقبل توفيقا ، بأسانيد الى ابن عباس ٠

ولعلى لا أشق عليكم بنقل مثل منها ، شاهدا على مدى ايغال الاسرائيليات فى التفسير ، وتوغل هذا المستشرق اليهودى فىاستيعاب تراثنا، لم يكد يفلت منه شىء لم يكن بين يديه يلتمس منه أخفى نبض لوجداننا ٠

القرآن الكريم قص علينا فى آيات الصافات (١٠٢ : ١٠٧) خبر رؤيا ابراهيم أنه يذبح ولده ٠ ولم يذكره باسمه ، اذ لا تتعلق العبرة بكون اسمه اسماعيل ، بل العبرة بموقف الاب وابنه من هذا البلاء المبين ، قال تعالى :

« فلما بلغ معه السعى قال يا بنى انى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ، قال يا أبت افعل ماتؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين ٠ فلما أسلما وتله للجبين ، وناديناه أن يا ابراهيم ٠ قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزى المحسنين ٠ ان هذا لهو البلاء المبين ٠ وفديناه بذبح عظيم » ٠

فلنقرأ ترجمة ما كتبه « جولدتسيهر » بقلمه السام ، عن تضارب المرويات عن ابن عباس :

[مثال ذلك ، الخلاف على اسم الذبيح : فقد أخذ محمد فى احدى السور المكية قصة التوراة ، دون تسمية الابن المعين للتضحية ٠ والظاهر أن محمدا نفسه ، باخبار من اليهود والنصارى ، كان لا يفترض غير « اسحاق » ذبيحا مختارا للتضحية ٠٠ ويبدو أيضا أن أحدا لم يشك فى ذلك فى القرن الاول للاسلام ٠ بيد أنه روى ــ كما ذكر الطبرى أيضا ــ أن أحد ذوى الملق من اليهود الذين اعتنقوا الاسلام ، دخل على الخليفة عمر بن عبد العزيز وأخبره أن اليهود ، حسدا منهم للعرب ، استبدلوا جدهم اسحاق بجد العرب اسماعيل ٠ وهذا من وجوه التحريف

التى أدخلها اليهود على التوراة . ويمعن بعضهم فى توضيح ذلك التحريف المفترض ، بقراءة نص (التوراة : سفر التكوين ٢٢/٢) على النحـو التـالى : « قال الله لابراهيم : اذبح ابنـك بكرك - اسحاق » ولا يمكن أن يكون المراد من الابن البكر - فى مقـابل المتأخر فى الولادة - الا اسماعيل . فيقال ان اسم اسحاق المذكور بعد الوصف الذى لا خلاف فى ثبوته فى التوراة وهو : بكرك ، - والذى يناقضه فى الدلالة - أدخله اليهـود فى النص زورا . ويبدو أنه قد أدخل على المسلمين عن هذا الطريق ، أن اسماعيل هو الذبيح المفدى بذبح عظيم (فى آية الصافات ١٠٧) وقد أمعن بعضهم فى الغوص على أدلة خفية على ذلك ، رواها الطبرى الى جانب أدلة معارضة لهـا ، بروح محـايدة تماما .. هكذا يقف الرأيان جميعا أحدهما بازاء الآخر ، كلاهمـا ثابت بالنقل مدعم بالسند الكافى لاقناع العلماء . فيستطيع فريق اسحاق أن يرجع عن طريق أبى هريرة الى **كعب الاحبـار وهو مـن أهم مصـادر الرواية للاسرائيليات والنصرانيات فى الاساطير الاسلامية ...** بيد أن الحجة الكبرى فى مسائل تفسير القرآن هو ابن عباس ، فليظهر ابن عباس نفسه اذن ، على أنه أساس الاسناد عنـد كلا الفريقين . وتسوق كلتا الروايتين قوله مدعما برجال الاسناد فى نسق جيد ، دليلا على صحة مذهب كل منهمـا : ففريق اسحاق يتخـذ « عكرمة » - ابن أبى جهـل - وفريق اسـماعيل يتخـذ « الشعبى » أو « مجاهدا » ، عمدة فى الرواية المبـاشرة عن ابن عباس (الطبرى ٤٦/١٣) وبعد شيء من الاضطراب - حمل الجاحظ على أن يقول فى الحيوان ٧٤/١ : وقد أمر الله تعالى ابراهيم عليه السلام بذبح اسحاق واسماعيل كليهما ، وكذلك ترك صاحب البدء والتاريخ ٦٣/٣ نشر هوارت ، الفصل فى ذلك معلقا بقوله : والله أعلم ...

يستقر اخيرا فى الشعور العــام للمسلمين الرأى الاخير الــذى يتجلى فى قرن اسم اســماعيل بكنية مميــزة تذكــر بالتضحية : الذبيح ٠ واكثر فى الاستعمال كنية أبى الفداء ، وأشهر من كنى بذلك المؤرخ المعروف « أبو الفداء اسماعيل بن على » ت ٧٣٢ هـ ٠ وفى قصيدة من المديح نظمها العــالم القــاهرى المشهور لعهــده « رفاعة بك الطهطاوى » وقدمها سنة ١٨٦٣ الى خديو مصر الاسبق اسماعيل باشا ، تكرر ذكر الممدوح باسمُ أبى الفداء ٠] ـ ١٠٢

وأوغل « جولد تسيهر » فى تتبع هذه الكنية أو تلك ، فى أسماء أعــلام كنوا بهما ٠ محددا بالصفحة والسطر ، مواضع ورودهما فى كتب تراثنــا ، المشهورة والمغمورة منها فيما نقل :

فى (روض الرياض لليافعى) صفحة ٢١ السطر الرابع ط القــاهرة سنة ١٢٩٧ ، اسم صوفى يدعى : أبا الذبيح اسماعيل بن محمد الحضرمى ٠

فى (عقد اللآلىء للخزرجى) ص ٢٠٢ السطر الخامس نشر رود هاوس، ورد ذكر رجل اسمه اسماعيل وكنيته أبو الفدا !

فى (بغية الوعاء للسيوطى) ص ٤٥٦ السطر الخامس ، حيث رواه السيوطى اجازة عن : أبى الذبيح اسماعيل بن أبى بكر الزبيدى ٠

يحمل أيضا كنية أبى الفدا : المؤرخ اسماعيل بن عمر بن كثير (ت سنة ٧٧٤ هـ) وأبو الفدا اسماعيل بن حسين الخزرجى صاحب (البديعية) فى مدح الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ واسماعيل بن محمد البغلى صاحب منظومة فى المترادفات العربية (ت : ١٣٦٣ م) ٠

فتــأمل :

بمثل هــذا الايغال فى التراث والعلم به ، يســتهوى قراءه فيغيب عنهم ضلال هواه وعثرات منطقه فيما يستنتج من مقدمات فاسدة :

صورة الصافات مكية ، ولا عهد لمكة ـ طول تاريخهـا ـ بيهـودى أو نصرانى ، فكيف أخـذ محمد ، صلى الله عليه وسلم قصة التوراة منهم ؟

وفى أى منطق ، يجوز أن يعطى فرض احتمـال بلفظ « والظـاهر » أن محمداً نفسه باخبار من اليهود والنصارى كان لا يفترض غير اسحاق ذبيحـا ، ويبدو أيضا أن أحدا من المسلمين ـ على الاطلاق ـ لم يشك فى ذلك ؟

واذا جاز هـذا على من يجهلون تاريخ الاسـلام ، فكيف جاز على مثل « عمر بن عبـد العزيز » ادعاء يهودى أسلم منافقـا ، أن النبى والصـحابة والمسلمين جميعا قبله ، فهموا آية الصافات بما زوره اليهود الذين استبدلوا جدهم اسحاق ، باسماعيل جد العرب ؟!

ثم تصطدم كل هذه الفروض التى أعطاها « جولد تسيهر » بمرويات فى اسماعيل الذبيح ، فلا يتردد فى تجريحها واتهامها ، وانه ليعلم علم اليقين أن تناقض المرويات يرجع الى الاسرائيليات التى أقحمها أسلافه على التفسير ، لا الى أخذ النبى صلى الله عليه وسلم بأخبار يهود أو نصارى ، ثم خروج « عمر ابن عبد العزيز » على اجماع المسلمين قبله ، الى قولة ليهودى أسلم ، أقنع بها أمير المؤمنين أن اليهود ضـحكوا على عقول المسلمين فى الصـدر الاول ، وأدخلوا عليهم « اسحاق » زورا !!؟

●●●

بعد أن فرغ « جولدتسيهر » من الصحابى الجليل « عبد الله بن عباس » انتقل الى « الامام الطبـرى » عمدة التفسير بالمأثور ، فأناخ عليه بكل ثقـله ، وتتبع فى صـبر عجيب ما فى تفسيره من اسرائيليات ، ينميه بهـا كذلك الى المدرسة اليهودية !

متجاهلا ما يعلمه يقينـا من منهج الامام الطبـرى الامين ، فى نقل كل ما وصل اليه من المرويات المأثورة فى التفسير ـ وفى التاريخ كذلك ، مسندة الى قائليها ، دون أى التزام منه بالاخذ بها أو حملها على محمل الثقة · بل

الله فلما فاته أن يعقب عليها بالقول المختار عنده ، محتكما فيه الى ظاهر النص • ومقتضى هذا الاختيار ، رفضه سائر المرويات التى لا يقبلها ظاهر المعنى • ولم يفته كذلك أن يقف بين رواية وأخرى ، لكى ينبه على ما لا يحتمله منها ظاهر المعنى ، ويوجه الى عدم التعلق بتأويل القرآن بما ليس فيه ، بعبارته المشهورة :

« وليس فى العلم بشىء من هذا كله نفع لدين أو دنيا ، ولا الجهل به يضر »•

بدأ « جولدتسيهر » كلامه فى الطبرى ، انطلاقا من حكاية الذبيح والخلاف على اسمه ، بمقولته الاسرائيلية :

[وفى كثرة الضروب من احتمالات التفسير ، وفى هذا الخصب الفكرى المريع ، يلمح علماء الدين الاسلامى مباشرة ، ميزة للقرآن نفسه ودليلا على ما يستبطنه من ثروة وما ينطوى عليه من فيض غزير • فالقرآن ذو وجوه ، ومعنى ذلك أنه جم الدلالات كثير المدارك • وهذه الوجوه تطابق تماما كثرة الوجوه : « بانيم » التى يجدها علماء الكتاب فى التوراة ـ ١٠٥

و « الطبرى » ذروة التفسير بالمأثور ، كما يعد من ناحية أخرى نقطة الابتداء وحجر الاساس لادب التفسير القرآنى • وفى طريقته فى تطبيق التفسير يقرر دائما هذا المبدأ : ينبغى فى المرتبة الاولى مراعاة المعنى الظاهر للفظ ، لا يجوز أن يتحول عنه التفسير الا أن تكون هناك مواضع أخرى من القرآن أو أسباب خاصة تقتضى هذا العدول عن ظاهر المعنى • وهو يفهم من هذه الاسباب الاخرى : أقوال السلف ، وعلى الاخص أقوال الصحابة والائمة ، أى التابعين وعلماء الامة الاسلامية] ـ ١١١

ثم لم يلبث ، بعد هذه التوطئة الناعمة ، أن أخذ الامام الطبرى من ثغرة مروياته لاقوال السلف ، قال :

[وهو **يتوسع** كذلك فى استخدام **المصادر** اليهودية الاصل: كعب الاحبار ووهب بن منبه ، فيما يتصل بقصص الاسرائيليات ٠ ولم يكن ذلك لينال موافقة الذين سبقوه ٠ وكتـــابه **اغزر الكنوز** بالنصوص ـ الاسرائيلية ـ المنتشرة فى الاوســاط الاســلامية ، **وبالاساطير** النصرانية كذلك ، يرويها الطبرى راجعا الى « وهب ابن منبه »

ـ وقد بقيت هذه المقتبسات من كتب اليهود ، مادة متوارثة باطـراد لقصص الاسرائيليات فى كتب التفســير ٠ ويرى « ابن خلدون » أن أول من تناولها بالنقد ، هو المفسر الاندلسى عبد الحق بن عطية ، ت ٥٤٢ هـ ٠ ويذكر « ابن حجر الهيتمى » فى (الفتاوى الحديثية : ١٧٦) أن تفسير ابن عطية هذا ، قد أفسح المجال لآراء اعتزالية ٠ ومن هنا نزعته الى النقد المتشكك ٠ **وعلى هذا** فان ابن حجر يعد تفسير ابن عطية خطرا على العقيدة (!؟)

وينقل جولدتسيهر من المرويات فى تفسير الطبرى لآية البقرة ٣ ، ما يرده الى الاصـحاح ٥٣ من (سفر اشـعيا) ثم يبدو له أن يهـادن الطبرى ببعض انصـــاف منهم ، استدراجا الى كشف شـحنة من الاسرائيليات فى تفسيره (ص ١١٤) ٠

بالجهر ، كان « جولدتسيهر » وأمثاله من يهـود المستشرقين يفحصون تراثنا ويحصون ما نشب فى الفكر الاسلامى من اسرائيليات سلفهم ، ليصوبوا منهـا السـهام الى الموقع الدينى الـذى امتنع طويلا على الاعـداء ، وأئمة المسلمين ساهرون على حراسته مجاهدون فى نفى الشوائب الدخيلة على فهم الامة لكتاب دينها ٠ وأعانهم على هـذا الجهاد ، أن كانت الامة تجل علمـاء الاسلام وترجع اليهم وحدهم فى أمور دينها ، وأن ظلت الاسرائيليات فى كتب قديمة غير شائعة التداول بين العـامة ٠ فبقى وجـدان الامة يقـاوم خطر الاسرائيليات ، بصفاء الايمان والهام الفطرة ، تهديها بصيرتها المتصلةبالقرآن اتصالا مباشرا ـ قبل نشوبالغزو الفكرى الاستعمارى ، وظهورالترانزستور ـ فهى تتلو آياته أو تتلى عليها مصبحة ممسية ، فى الحضر والريف والبادية ، فيعصمها من الغفلة والزيغ والضلال ٠

ومهما تكن العصور الماضية قد أدخلت على الاسلام ماليس منه ، وحملته أوزارا من أسطوريات دخيلة عليه يكذبها التاريخ ويرفضهـا العقل والدين ، فلم يخـل أى عصر من صوت يحـذر الامة من مدسوس الاسرائيليـات وبدع التأويلات ، ولا أعوز الامة فى أحلك فترات تاريخهـا ، شعاع من النور يهدى مسراها فى داجى الظلمات ٠ وكما شهد التاريخ محاولات الكيد للاسلام بعزل أمته عن نور هداه ، شهد المجاهدون الابرار فى الموقع الدينى ، يتتابعون على حمل منار القرآن جيلا بعد جيل ٠٠٠

وأعطى تاريخنا ، حتى القرن الماضى ، فى دراسات المستشرقين وعلماء الحضارة ، تفسيره وعبرته :

الدين سر قوة هذه الامة ،

وبالايمان فتح المسلمون العالم ،

ويهون عليهم أن يخسروا كل شىء ولا يخسروا دينهم ٠

وقد تغلب الامة الاسلامية ، ويبقى دينها لا يقهر ، يحمى بقاءها ٠

وأنقل من نص الترجمة العربية لما استخلصه « جوستاف لوبون » بعد طول عكوفه على دراسة (حضارة العرب) وتاريخ الاسلام من عصر الفتوح الكبرى الى منتصف القرن الماضى :

[للاسلام وحده كل الفخار بأنه أول دين أدخل الى العالم التوحيد المحض ٠٠ ومنه تشتق سهولة الاسلام العظيمة ٠ وفى هذه السهولة سر قوته ٠ وادراكه سهل خال مما تراه فى أديان أخرى ويأباه الذوق السليم ، من المتناقضات والغوامض ٠ ولا شىء أكثر وضوحا وأقل غموضا من أصول الاسلام القائلة بوجود اله واحد ، وبمساواة جميع الناس أمام الله ، وببضع فرائض (الصلاة والزكاة والصوم والحج) وساعد وضوح الاسلام وما يأمر به من العدل والاحسان على انتشاره فى العالم٠ وبتلك المزايا نفسر سبب اعتناق كثير من الشعوب النصرانية للاسلام ، كما نفسر السبب فى عدم تنصر أى شعب منها بعد أن رضى الاسلام دينا ٠

والاسلام من أشد الاديان تأثيرا فى النفوس ، يعرف كيف يدخل فى النفوس ايمانا ثابتا لا تزعزعه الشبهات ٠ ولا ريب فى أن نفوذ الاسلام السياسى والمدنى كان عظيما للغاية ٠ فقد كانت بلاد العرب قبله مؤلفة من امارات مستقلة وقبائل متفرقة فلما ظهر الاسلام ومضى على ظهوره قرن واحد ، كانت دولته ممتدة من الهند الى أسبانية ، وكانت الحضارة تسطع بنورها الوهاج فى البلدان التى خفقت رايته فوقها ٠ والاسلام من أكثر الديانات ملاءمة لاكتشافات العلم ، ومن أعظمها تهذيبا للنفوس وحملا على العدل والاحسان والتسامح ٠ ١٥٧ : ١٥٩

[وتجمع بين مختلف الشعوب التى اتخذت القرآن دستورا لها ، وحدة اللغة والصلات التى توثقها شعائر الدين ٠ ويجب على جميع المسلمين قراءة القرآن بالعربية ، وهى لذلك أكثر لغات العالم انتشارا ، على ما يحتمل ٠ وعلى ما بين الشعوب الاسلامية من الفروق العنصرية ، ترى بينها من التضامن الكبير ما يمكن جمعها تحت **لواء واحد** ٠ ومع ما أصاب حضارة العرب من أفول كالحضارات التى ظهرت قبلها ، لم يمس الزمن دين الاسلام الذى له من النفوذ اليوم ــ النصف الثانى من القرن التاسع عشر ــ ما كان له فى الماضى ، والذى مايزال ذا سلطان كبير على النفوس ، مع أن الاديان الاخرى التى هى أقدم منه ، تخسر كل يوم شيئا من قوة نفوذها ٠ ــ ١٦٠

[وبالدعوة وحدها اعتنقت الاسلام الشعوب التى قهرت العرب مؤخرا كالترك والمغول ٠ وبلغ من انتشار الاسلام فى الهند التى لم يكن العرب فيها غير عابرى سبيل ، أن زاد عدد المسلمين فيها على خمسين مليونا ، ويزيد عددهم يوما فيوما ، مع أن الانكليز الذين هم سادة الهند فى الوقت الحاضر ، يجهزون البعثات التبشيرية ويرسلونها الى الهند تباعا لتنصير مسلميها ، على غير جدوى ٠ ولم يكن الاسلام أقل انتشارا فى الصين التى لم يفتح العرب أى جزء منها قط ٠٠ ــ ١٦٣

[ويلوح لنا رسوخ هذا النفوذ الى الابد فى جميع البقاع الآسيوية والافريقية التى دخلها الاسلام ، والتى تمتد من مراكش الى الهند ٠ والاسبان وحدهم استطاعوا أن يتخلصوا من الحضارة العربية ــ الاسلامية لكنهم وقعوا فى الانحطاط العضال] (١) ١٧٢

---

(١) من كتاب (حضارة العرب) وفيه بيان مدعم بالوثائق والارقام عما أصاب أسبانيا من تدهور وتخلف وانحطاط ، بعد تخلصها من الاسلام وامعانها فى اضطهاد المسلمين الذين آثروا القتل والطرد عن آخرهم ، على ترك الاسلام (ص ١٦٢ وما بعدها) ٠

لم يكن يهود القرن التاسع عشر فى حاجة الى وعى هذا الدرس من عبرة تاريخنا • فلقد وعاه أسلافهم منذ وحد الاسلام فى عصر المبعث عرب الاوس والخزرج وجمع شملهم الممزق بالفتنة والعداوة والبغضاء ، وألف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمة الله اخوانا فى الدين أنصارا لله ورسوله عليه الصلاة والسلام• ونسخ ماكان بينهم منميراث الثأر وأحقاد الحروب التى صلوا نارها فيأواخر الجاهلية ، وسهر اليهود على الهاب ضرامها بالتآمر والتواطؤ •

وقد أورثوا الاجيال من سلالتهم مهمة الكيد للاسلام عن طريق التسلل الى الفكر الدينى لامته ، ريثما تتم مرحلة التحضير لملكة بنى اسرائيل •

مهمة يهود المستشرقين فى مرحلة التحضير ، كانت تحريك الاسرائيليات الى موضع جديد :

ينقلونها من حواشى كتب التفسير وأشتات التراث البعيدة عن التناول العام والمرسلة بغير توثيق ، فيردونها على وجه التدليس الخفى الى نصوص من مصادر يهودية ، تشد اليها وثاق القرآن والسنة والفقه و ••• انطلاقا الى مقولتهم الجريئة الفاحشة : الاسلام كله بضاعة اسرائيلية •

وينشر جديد الاسرائيليات فى أوروبا ، بمظهر علمى مزيف ، لتسيطر على الفكر الغربى الحديث ، فى انتظار نقلها الى الشرق الاسلامى ، مع رسل الثقافة العصرية •

فى القرن التاسع عشر ، تلقت مكتبة الاستشراق حشدا من مؤلفات وبحوث فى الاسلام والاسرائيليات ، تفوق العد والاحصاء • يكفى أن نشير الى مئات منها بين مرجع المستشرق اليهودى المجرى « جولدتسيهر » فى كتابه (العقيدة والشريعة فى الاسلام) الذى نتخذه هنا شاهدا على المرحلة ، من حيث هو نموذج فحسب ، لتحرك الاسرائيليات الى موقع جديد فى فترة الحرث لارض الميعاد : •

دون أن يفهم من تخصيصى اياه بالذكر وطول وقوفى عنده واستشهادى به ، أنه أخبث ما كتب مستشرقو اليهودية والصليبية فى هذا المجال ، بل لعله أهون بكثير من بضاعة نفر منهم ٠

وجه تخصيصه هنا ، أن قد زكاه ثلاثة من العلماء الازهريين ، سافروا فى بعثات دراسية عالية الى أوروبا :

الدكتور محمد يوسف موسى : المدرس بكلية أصول الدين بالازهر

والشيخ عبد العزيز عبد الحق : المدرس بكلية الشريعة بالازهر

والدكتور على حسن عبد القادر : مدير المركز الثقافى الاسلامى بلندن

وقد تعـاونوا على نقله الى المكتبة العربية الاسـلامية فى ترجمة دقيقة أمينة ، قدم لها ــ عنهم ــ الدكتور محمد يوسف موسى فقال فى مقدمته بعد أن نوه بالتراث الجليل للمستشرق المؤلف ، ما نصه :

[والكتاب دراسة تفصيلية للاسلام من جميع نواحيه : من ناحية رسوله ، والشريعة ونموها ، والعقيدةوتطورها (؟!) والفرق الاسلامية المختلفة ، ثم الحركات الاخيـرة الاصـلاحية فى رأى أصحابها ٠ وقد استند المؤلف فى كل قسم من أقسـام الكتاب الى المراجع الاسلامية الموثوق بها ٠ ويسعفه عقله الالمعى وبصيرته النافذة ٠ ومع هذا فقد انساق الى أخطاء غير يسيرة ، بعوامل قد يكون منها أنه لم يتأت له أن ينفذ تماما الى روح الاسلام ومبادئه وأصوله ، وقد يكون منهـا ما هو طبيعى فى كل ذى دين وثقافة خاصة ، من العصبية لدينه وثقافته الخاصة ٠

ومن أجل ذلك كان نقله الى العربية فرضا على القـــادرين من أبنائها ، وبخاصة اذا كان ممن تخصص فى الشئونالاسلامية ٠٠ وقد أمدنا الله بعونه فأنجزنا بفضله ما اتفقنـا عليه من خطة العمل ٠ وبقى التعليق والرد على ما أخطأ فيه المؤلف وما كـان

من سوء فهمه لبعض النصوص أو سوءاستدلال بها • وهذا العمل كان واجبا أن أضطلع أنا به ، فاستعنت فى الكثير بالاخ العالم الثبت « الشيخ محمد على النجار : المدرس بكلية اللغة العربية بالازهر • فكان لى منه العون الكبيرالقيم المشكور من الله ومنا ومن القراء جميعا • على أننا جميعا ، نحن الثلاثة المترجمين ، مقرون للترجمة فى الكتاب كله ، أصله وحواشيه • ومقرون للتعليقات التى رأينا أنه لابد منها •

هذا واننا نتقدم بأطيب الشكر والاعتراف بالجميل للاستاذ الدكتور طه حسين بك ، على ما أولانا من ثقة وتأييد ، بعدمراجعته الترجمة وما ألحق بها من التعليقات •

ونرجو بعد هذا كله أن نكون قمنا بما يجب علينا نحو الاسلام والدراسات الاسلامية ، واغناء اللغة العربية بخير ما كتب الغربيون من هذه الدراسات ، والله ولى التوفيق] (١)

مع مثل هذه التزكية العالية للمؤلف وكتابه ، وما توفر للترجمة منأمانة وثقة ومراجعة وتأييد ،

تنتفى عنه وعنى شبهة التعلق بأسوأ ما كتب متعصبو المستشرقين ، فلا أكون اخترت الا ما رأى مترجموه الكرام أن نقله فرض ، واعتزوا باغنائنا به ، وشهدوا له بأنه خير ما كتب الغربيون من الدراسات الاسلامية ، والتمسوا كل عذر للمؤلف الالمعى العقل النافذ البصيرة ، عما أخطأ فيه •

وأينا يبرأ من خطأ وعصبية لدينه وثقافته ؟

فلنصحبه دليل مرحلة التوثيق للاسرائيليات ، وتحريكها من منطقة الظل فى كتب السلف ، وشاهدا عليها من أهلها •••

---

(١) من مقدمة الترجمة العربية ، طبع دار الكاتب المصرى بالقاهرة سنة ١٩٤٥ • والفقرات المنقولة منها ، مذيلة بأرقام الصفحات ••

وما أقدمه فيما يلى من تعليقات ، ليس مما جاء للسادة المترجمين فى حواشيهم على هامشه •

أعطى « جولدتسيهر » كتابه (العقيدة والشريعة فى الاسلام) عنوانا آخر شارحا له ومفسرا ، وهو : تاريخ التطور العقدى (كذا) والفقهى فى الاسلام ٠

وقدم جوهر فكرته عن هذا التطور ، فى الفصل الاول (محمد والاسلام) توطئة لعرضها بتفصيل فى : القرآن والسنة والفقه ٠ وتتبعها مع سير التاريخ الاسلامى من عصر الوحى الى زمن المؤلف (١٨٥٠ : ١٩٢١ م) ٠

وينبغى الاقرار بأنه واضح الفكرة والمنهج ٠ ولست مع السادة المترجمين فى أنه قد يكون أخطأ فيما أخطأ فيه ، عن سوء فهم ٠ فى تقديرى أن سوء الفهم أبعد ما يظن بهذا المستشرق الذى تغلغل فى تاريخ الاسلام واستوعب كل ما وصل الى زمنه من تراثه ، ووعى كل ما فى مكتبة الاستشراق من دراسات اسلامية ٠ وبنظرة ذكية وفهم عميق ووعى نافذ ، استخلص من كل ذلك ما رآه صالحا ، من أى سبيل ولو على وجه الايهام والتدليس ، لدعواه التى يلقانا بها صراحة من أول الكتاب ، دون لف أو دوران :

الاسلام فى أصله القرآنى وفى السنة ، بضاعةيهودية ترد الى مصادرها من كتب بنى اسرائيل ٠٠ أما تطوره الفقهى والمذهبى فمردود الى بضاعة مشتركة من نحل وعقائد وأفكار شتى : يهودية ونصرانية ، وغنوصية ، وافلاطونية حديثة ، ورومانية ، وبوذية ، ومجوسية ٠٠٠ صهرها الاسلام فى بوتقته بمهارة ، ونجح فى اخفائها :

[ويتبين ذلك اذا عرفنا أننمو الاسلام مصطبغ نوعابالافكار والآراء الهيلينستية ، ونظامه السياسى كما تكون فى عهد الخلفاء العباسيين ، يدل على الافكار والنظريات الفارسية ، وتصوفهليس الا تمثيلا لتيارات الآراء الهندية والافلاطونية الجديدة ٠ على أن من الحق أن نقرر أن الاسلام فى كل هذه الميادين قد اكد استعداده

وقدرته على **امتصاص** هذه الآراء وتمثلها كما أكد قدرته عـلى **صهر** تلك العناصر الدخيلة فى بوتقة واحدة ، فأصبحت لا تبـدو على حقيقتها الا اذا حللت تحليلا عميقا وبحثت بحثا دقيقا] ــ •

وهذه هى مهمته فى الكتاب :

أن يكشف بالتحليل العميق والبحث الدقيق عن **العناصر** الاجنبية التى امتصها الاسلام وصهرها فى بوتقته الخاصة بمهارة ، فأصبحت لا تبدو على حقيقتها ٠٠٠

بهذا صرح فى صدر كتابه ، فليس لنا اذن أن نحمله على غير ما صرح به وقصـد اليه ، فنرى فيه كمـا وصفه السادة المترجمـون : « دراسة تفصيلية للاسلام من مختلف نواحيه ، استند فيها الى **المصادر الاسلامية الموثوق بها** »

المصادر عنده ، بصريح اقراره : أصول العناصر الاجنبية التى قصد الى الكشف عنها ، ليثبت دعواه بأن الاسلام امتصها بمهارة وصهرها فى بوتقته الخاصة ٠ أما مصادرنا الموثوق بها ، فلم تكن عنده سوى شواهد على هـذه الدعوى ، يشدها الى أصول مصادره من العناصر الاجنبية ، بتدليس خبيث واحتيال ماكر ٠٠٠

فى تحليله للعناصر الاجنبية وبحثه العميق عنها ، يبدأ بطبيعة الحـال بالقرآن الكريم ٠ فلنقرأ نص الترجمـة العربيـة الامينة لقوله فى (محمـد والاسلام) وهو الفصل الاول من الكتاب :

[وهذا الطابع العام ــ المشار اليه فى الفقرة السابقة عن امتصاص الاسلام للعناصر الاجنبية وصهرها ــ يحمله الاسـلام **مطبوعا على جبهته منذ ولادته :** فمحمـد ، مؤسسه ، لم يبشر بجديد من الافكار ٠ كما لم يمدنا أيضا بجديد فيما يتصل بعلاقة **الانسان** بما هو فوق حسه وشعوره ، وباللانهاية ٠

فتبشير النبى العربى ، **ليس الا مزيجا منتخبا** من معارف وآراء دينية ، عرفهـا أو **اسـتقاها** بسبب اتصاله **بالعنـاصر اليهودية** وغيرها ، التى تأثر بها تأثرا عميقا ، والتى رآها جديرة بأن توقظ عاطفة دينية عند بنى وطنه ·

وهذه التعاليم التى **أخـذها عن تلك العنـاصر الاجنبية** ، ـ اليهودية بخاصة ـ كانت فى **رأيه** ضرورية كذلك لتثبيت ضرب من الحياة فى الاتجاه الذى تريده الارادة الالهية · لقد تأثر بهذه الافكار تأثرا وصـل الى أعمـاق نفسه ، وأدركها بايحـاء ـ لا بوحى ـ **قوته** التأثيرات الخارجية ، فصارت عقيدة انطوى عليها قلبه · كما صار يعتبر هذه التعاليم ـ التى أخذها عن العناصر الاجنبية ـ وحيا الهيا · فأصبح باخلاص ، على يقين من أنه أداة لهذا الوحى · **حقا** ، لا جدة ولا طرافة فى دعوته الى الاسلام ، ولكن قد **استعيض** عنها بأن محمـدا بشر بمذهبـه للمرة الاولى بحماس لم يفتر ، ولم تعوزه المثابرة ـ ٦

[لقـد كان مسقط رأس محمـد مركزا من المراكز الهـامة الخطيرة لعبادة الاوثان والاصنام ، كما كان مقرا للكعبة والحجر الاسود · ومع هذا كانت المادية وكبرياء الجاهلية وتحكم الاغنياء فى الفقراء ، هى المميزات السائدة عند أشراف مكة ··· رأى هذا فأخذ يشكو من اضـطهاد الفقراء وطمع الاغنياء وعـدم المبـالاة بالصالح العام وواجبات الحيـاة الانسانية والاشياء الفـاضلة الباقية التى تقابل متاع هذه الدنيا بين هذه الامور التى أثارت نفسه ، **والاثر** الذى كان باقيـا وحيا فيه ، وهـو الاثر **المدين** به للتعاليم التى سبق أن **تلقاها** وتفتحت لها نفسه وأشربها قلبه] ٨

ونسأل : تلقاها ممن ؟ لن يلبث جولدتسيهر أن يصرح بأن اليهود كـانوا أساتذة له ! فهل قالت المصادر الاسلامية الموثوق بها ، أو غير الاسلامية ، أن

مكة فى جاهليتها الوثنية كانت مجـالا لاى تسلل يهودى ، أو أنها عرفت قبل المبعث ، من أى طريق ، مبشرا من بنى اسرائيل ؟

كانت مكة ، كما قال : مركزا من المراكز الهامة لعبـادة الاوثان ، فاين اليهودية ؟ والثابت تاريخيا أن البلدة العتيقة ، منزل الوحى ، كانت موصدة الابواب فى وجه اليهـود الذين نشبوا فى شمال الحجـاز · وثابت تاريخيـا كذلك ، أن محمدا صلى الله عليه وسلم ، هاجر الى يثرب فى السـنة الثالثة عشرة لمبعثه ، فهل كان اتصاله قبل المبعث بالاساتذة اليهود ، فى رحلة طفولته ـ فى السادسة من عمره ـ مع أمه لزيارة قبر أبيه فى يثرب ؟!

وعجب من العجب ، أن يقال بتأثر النبى صلى الله عليه وسلم بتعاليم اليهود ، فى انكار طمع الاغنياء من قريش وتعلقهم بأعراض الدنيـا الزائلة ، فهل يمكن من أى سبيل ، أن تقـاس مادية الاشراف المكيين من قريش ، بوثنية عبدة العجل الذهبى ؟ أو يمكن ، بأى مقياس ، المقارنة بين ظلم سـدنة الكعبة للفقراء ، وضراوة أكلة الربا ومصاصى الدماء ؟

ويمضى « جولدتسيهر » على غلوائه ، فى شـد الوحى المكى المبكر الى عناصره الأجنبية اليهودية ·

[وفى بدء رسالته ، كانت تأملاته تأخذ طريقها الى الخارج ـ فى القرآن ـ فى شكل أمثال مضروبة للحياة الاخرى كانت تفرض نفسها على مخيلته بقوة تزداد يوما بعد يوم · ـ ٨

اذن ، ما كان يبشر به خاصا بالدار الاخرى ، ليس الا مجموعة مواد استقاها بصراحة من الخارج يقينـا ، واقام عليهـا هـذا التبشير · لقد أفاد من تاريخ العهد القديم ، وكان ذلك فى اكثر الاحيان عن طريق قصص الانبياء ، ليذكر بمصير الامم السابقة الذين سخروا من رسلهم الذين أرسلهم الله لهدايتهم ، ووقفوا فى

طريقهم • وبهذا انضم محمد الى سلسلة أولئك الانبياء القدماء ، بوصفه آخرهم عهدا وخاتمهم ••] ـ ٩

الاستنتاج هنا : « اذن ••• » ليس الا صياغة أخرى لمقولته التي يريد ليرسخها على وجه اليقين الجازم بأن الوحى المكى المبكر [ليس الا مجموعة مواد استقاها محمد بصراحة من الخارج يقينا ، وأفاد فيها من تاريخ العهد القديم] •

واصلا الى هذا الاستنتاج الذى صار الى صريح اليقين الثابت ، من مقدمة يخفى فسادها على غير القلة من المتخصصين فى الدراسة القرآنية ، الذين يعلمون أن ليس فى سور الوحى المبكرة أى مثل مضروب للحياة الآخرة ، كما ليس فيها خبر من قصص الانبياء المقول بأنها من (العهد القديم) مثل سور : العلق ، والمزمل ، والفاتحة ، والضحى ، والشرح ، والكوثر ، والكافرون ، والتكاثر ، والماعون ، والفيل ، والاخلاص ، والفلق ، والناس ، والقدر ، والتين ، وقريش ••• وهى جميعا من السور الثلاثين الاولى على المشهور فى ترتيب النزول •

جعلها « جولدتسيهر » مع كل الوحى المكى ، أمثالا مضروبة للحياة الآخرة وقصصا للانبياء جاءت فى العهد القديم ، ليقول بعد ذلك عن الهجرة والوحى المدنى :

[وسوف لا أقص هنا تاريخ نجاحه أو فشله ـ فى العهد المكى ـ انما اذكر أن عام ٦٢٢ م كان مستهل تاريخ الاسلام (!؟) لقد هاجر النبى مدفوعا بسخرية قومه ، الى « يثرب » التى يظهر أهلها أكثر استعدادا لقبول ما يتعلق بالنظام الدينى من عواطف واحساس ، وذلك لانهم فى أصلهم من جنوب الجزيرة العربية • وفضلا عن هذا فان الافكار التى كان يبشر بها ، كان من الواجب أن تظهر أقل غرابة لديهم ، ان لم تكن مألوفة أكثر لهم ، اذ كان

للدين اليهودى ممثلون كثيرون بينهم · وفى هذه المدينة استمر الرسول يظهر أنه موحى له بوساطة الروح الالهى ، كما أن الجانب الاكبر من القـرآن ، نراه يحمل طابع وطنه الجـديد ! واتخـذ تبشيره اتجاها جديدا : فلم يصبح حديث من استولت عليه الرؤى المشبعة بالدار الآخرة وما فيها ، بل ان تلك الحالة الجديدة جعلت منه أيضا مجاهدا وغازيا ورجـل دولة ومنظم جمـاعة جـديدة أصـبحت تنمو شيئا فشيئا ··· والوحى الـذى نشره فى أرض مكة لم يكن ليشير الى دين جديد ، فقد كان تعاليم واستعدادات دينية نماها فى جماعة صغيرة ·

انه فى « المدينة فقط » ظهر الاسلام نظاما له طابع خاص ، وله فى الوقت نفسه صورة الهيئة المكافحة · انه فى « المدينة » دقت طبول الحرب التى تردد صداها فى جميع أزمنة التاريخ] ١١

« جولدتسيهر » يبدأ تاريخ الاسلام بالهجرة ، مدخلا الى دعواه بالتأثير المباشر ليهود يثرب فى الاسـلام ، دون أن يفوته تقرير استعداد عرب المدينة لقبول النظام الدينى ، أن يشير الى أصلهم فى جنوب الجزيرة العربية ، التى زعم المستشرقون أنها كانت موطنا أصليا للساميين ، ومنها خرجت الهجرات الى ما بين بابل ومصر ، الفرات والنيل :

وهو لا يجهل أن تاريخ الاسلام يبدأ من ليلة القدر ، أول نزول الوحى ، وليس من الهجرة التى وقع عليها اختيار ثانى الخلفـاء الراشدين ، للتقويم الاسلامى ، تقديرا لجلال أثرها فى تاريخ الاسلام ·

والقول بالتأثر الدينى لاهل يثرب قبل الاسلام والهجرة [بالدين اليهودى الذى كان له ممثلون كثيرون بينهم] ينفيه أن التاريخ لا عهد له بتمثيل اليهود للدين الموسوى ، وأن الدنيا لم تسمع قط بمبشر يهودى للدين ، وانما « كانت التجارة والربا عملهم الواحد الذى لا تعرف الدنيا لهم سواه » بنص مـا نقلنا فى المبحث السابق ، من ترجمة عبارة العلامة « جوستاف لوبون » ·

وافتراء فاحش الجرأة ، القول بأن [الجـانب الاكبر من القرآن يحمل طابع وطنه الجديد] فى دار الهجرة ، والـذى نزل من القرآن فى المدينة بعد الهجرة ، ثمان وعشرون سورة فحسب ، بعد أن نزلت منه فى العهـد المكى ، ست وثمانون سورة ، فيها كل أصول العقيدة الاسلامية :

وما أراه يجهل أن فى السور المدنية ، ما وصفه « بالرؤى المشبعة عن الدار الآخرة » التى قصرها على العهد المكى وحده ٠

ما من سورة مدنية ، من البقرة والانفال وآل عمران ، فى أوائل الوحى المدنى ، الى أواخره فى سور الفتح والمائدة والتوبة ، تخلو من آيات عن الدار الآخرة ٠ بل ان من السور المدنية ما هو قصر ، أو يكاد ، على القيامة والدار الآخرة ، مثل سور : الزلزلة ، والانسان والبينة ٠

لكنه يريد بهذا البهتـان ، أن يصل الى الاسـتاذية اليهودية للنبى عليه الصلاة والسلام ، فى دار هجرته !

[انه يريد الآن اصـلاح دين ابراهيم ٠٠٠ وكان تبشـيره مختلطا ببعض التقاليد القديمة التى تتعلق بابراهيم ٠ فالشعائر التى أسسها ، سبق أن وضع أساسها ابراهيم لكنهـا حرفت فى خلال الازمان والاجيال ٠٠٠ كمـا أنه بوجه عام كان مصـدقا لما سبق أن أوحاه الله لمن تقدمه من الرسل والانبياء ٠

[فتحريف الوحى القـديم وغموضه ، اللذان أصبحا مناط شكواه ، صار لهما منذ ذلك الوقت ـ الهجرة ـ أهمية جديدة فى تكوين فكرته عن الرسالة النبوية ٠ ذلك أن بعض الذين مالوا عن دينهم الاول ـ من يهود يثرب ـ والذينكانوا يرغبون فى مرضاته ، قد قووا فيه عقيدة أن أنصار الدين القديم قـد حرفوا البشارات التى جاء بها أنبيـاء التوراة وأنبياء الانجيـل ، عن ظهوره فى المستقبل ! والجدل ضد اليهود والمسيحيين شغل مكانا كبيرا فى

الوحى المدنى · لقد كان فيما مضى يعترف بأن الصوامع والبيع والصلوات تعتبر أمكنة عبادة حقيقية (الحج : ٤٠) لكن الامر تغير بعد هذا ، كما صار رهبان المسيحيين وأحبار اليهود موضع مهاجمة منه ، وقد كانوا فى الواقع أساتذة له ··] ١٣ : ١٤

ونقول : تصديق الاسلام لرسالات الدين قبله ، أصل ثابت من أصول العقيدة الاسلامية ، بصريح آيات محكمات مكية ومدنية · دون أن يعنى هذا التصديق تماثل الشرائع والمنهاج فيها جميعا ، بل : « لكل جعلنا منكم شريعة ومنهاجا » ·

وسنرى الى أى مدى اتكأ « جولدتسيهر » فى دعواه ان الاسلام بضاعة قومه ، على ما جاء فى القرآن مما هو جوهر الدين الواحد ، وداخلته شوائب طارئة ، على فترة من الرسل ·

وعبارته توهم أن النبى صلى الله عليه وسلم ، تعلق بهذا التصديق للرسل قبله ، بعد هجرته الى المدينة · وهذا الزعم مردود بأن فى السور المكية تأييدا لنبوة المرسلين السابقين ، وعبرة بمصاير من كذبوهم ، وما أتصور أن «جولدتسيهر » فاته من ذلك ما فى سور : الاعراف ، مريم ، طه ، النمل ، القصص ، الاسراء ، يونس ، هود ، الحجر ، سبأ ، نوح ، الانبياء ، ابراهيم ، النازعات ، الشمس ···

وكلها مما نزل من الوحى بمكة قبل الهجرة ···

ولا نرد على قصره تحريف اليهود للتوراة ، على من أسلموا من يهود عصر المبعث ، بأن تحريف اليهود للكتاب بعامة ، ثابت بصريح آيات قرآنية محكمات ، فهل يعوزه الاثبات من المصادر التاريخية ، بشهادة المسيحيين واليهود أنفسهم ؟

والزعم بأن من أسلموا من يهود المدينة · رغبوا فى مرضاته ، فقووا فيه عقيدة اخفاء قومهم البشارات بمبعثه ، ينقضه أن الوحى نزل بهذا الاخفاء

فى سورة البقرة (الآية ٨٩) وهى أول سورة نزلت بالمدينة ، قبل اسلام أى يهودى ممن هناك ! ويكفينا « جولدتسيهر » نفسه مئونة الردعليه ، بما أثبت فى حديثه عن البهائية ، من بشارات بالمبعث ، تأولها يهود القرن التاسع عشر فى اسرائيلياتهم الجديدة التى ظاهروا بها « عبد البهاء المبعوث فى جبل الكرمل » !

ويتجاهل فى كلامه عن الجدل مع أهل الكتاب فى الوحى المدنى ، أن العهد المكى لم يكن مجالا لجدل مع غير المشركين العرب الذين كان الاسلام يواجههم وحدهم فى مكة ، قبل أن يواجه فى دار هجرته اليهود الذين عبئوا أحبارهم لجدل دينى مع المصطفى عليه الصلاة والسلام ، قصدا الى اعناته ٠

ونراه هنا وضع رهبان النصارى مع أحبار اليهود فى سياق واحد ، بما يوهم التعميم فى موقفهم من الاسلام وموقف الاسلام منهم ، المدينة لم يكن فيها نصارى قط ٠ والجدل فيها انما كان مع اليهود وأحبارهم الذين تصدوا لحرب الاسلام بأخبث الذرائع ، من يوم وصوله الى دار الهجرة ٠ ويكفى أن أرد على « جولدتسيهر » بآية المائدة المدنية ، خطابا للنبى عليه الصلاة والسلام :

« لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن اقربهم مودة للذين آمنوا ، الذين قالوا انا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون » ٠

وآية (الحج : ٤٠) الذى استشهد بها على اعتراف القرآن بدور العبادة غير الاسلامية ، توهم عبارته فيها ، أنها نزلت بمكة « فيما مضى » قبل أن يتغير الامر فيهاجم من حرفوا البشارات بمبعثه ، عن اقتناع بما قاله الذين أسلموا من اليهود التماسا لمرضاته ٠

والآية مدنية ، من سورة الحج المدنية ٠ واقرارها لحرمة دور العبادة ، بيعا وصوامع وصلوات ، يتصل بأصل العقيدة الاسلامية فى حظر الاكراه فى الدين ٠

وتاريخ الاسـلام كله ، شـاهد على مبلغ احتـرام المسـلمين لكنائس النصارى وصوامع الرهبان وبيع اليهود ، فلم يكن ذلك موقفا وقتيا للرسول فى مكة ، تغير عنـه وتحول بتأثير قولة ليهـودى أسلم ، كمـا يدعى مؤلف (العقيدة والشريعة فى الاسلام) ليعود منها على بدء فيقول :

[ونحن ان كنا نستطيع أن نصف بالطرافة شيئا مما جاء به نبى الاسلام من الوجهة الدينية ، فهو **الجانب السلبى من وحيه** الذى كان يبشر به ٠٠٠ أما المذاهب والقواعد الوضعية الواقعية فكانت ذات **طابع انتخابى** كما سبق أن أوضحناه ٠ وقد سـاهم فى تكوين هذه المذاهب والقواعد الدين اليهودى والدين المسيحى على سواء ٠ وتفاصيل هـذه المساهمة أو الاشتراك ، لا محـل للحديث عنها هنا] ٠ ـ ١٤

يعنى بالمذاهب **والقواعد الوضعية** ذات الطابع الانتخابى من اليهودية والنصرانية ، ما جاء فى **القرآن** نفسه ، من أحكام الشريعة الاسلامية وقواعد منهاجا : بدليل ما جاء فى حاشيته على هذه الفقرة ، فى نص ترجمتها العربية (ص ٢٢٦) مع الحواشى المذيل بها الكتاب !

[فيما يتعلق بالعناصر اليهودية ، انظر بحث الاستاذ « أ ٠ ج ٠ فنسنك » : محمد واليهود فى المدينة (Mohammed en de Juden te Medina) مطبعة ليـدن سنة ١٩٠٨ م ٠ ولو أن كتـاب بكر : (المسـيحية والاسـلام (Christentum und Islam : الـذى نشره « مور » فى (الـكتب الشعبية للأديان) يتعلق بالتطور التالى ـ للاسلام بعد عصر المبعث ـ الا أنه يتضمن بيانات مفيدة عن **البدايات الاولى** للعناصر المسيحية فى **أصل الاسلام**] .

وآن لى أن أسأل « جولدتسيهر ، وفنسنك ، وبكر ، وكايتانى ، وشاخت » وأشياعهم :

متى وأين كان أحبار اليهود ـ ورهبان النصارى ـ أساتذة لنبى الاسلام عليه الصلاة والسلام ؟

أفى مكة قبل الهجرة ، ولا عهد لها فيما يقرر واقع التـاريخ ، بيهود أو نصارى ، ولا قام على أرضها من قبل التاريخ الى اليوم ، بيعة ولا كنيسة ؟

أم فى « المدينة » بعد الهجرة ، ولم ينزل من القرآن فى ذلك العهد المدنى غير ثمان وعشرين سورة ، بعد أن نزل بمكة قبل الهجرة ، ست وثمانون ؟

وهذه السور المدنيـة ، كيف يكون للاسـاتذة أن يعلموها ، ولم يكن فى المدينة راهب نصرانى قط فى المعروف من تاريخها ، وأحبار اليهود معبئون مع قومهم لحرب الاسلام بالجـدل والنفـاق والسم والفتنة والتواطؤ والتآمر مع مشركى قريش ؟

(سورة البقرة) أول الوحى المدنى ، تكفى وحـدها لبيان الجو العام للموقف بين الاسلام وهؤلاء المعلمين اليهود الذين تدعى لهم الاستاذية ، وفيهم يتلو النبى صلى الله عليه وسلم ، من مستهل الوحى بالمدينة :

« ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أمـانى وان هم الا يظنون * فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنـا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون » « أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخـرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون * ولقـد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينـا عيسى بن مريم البينات وأيدنـاه بروح القدس ، افكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون * وقالوا قلوبنا غلف ، بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون * ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون به على

الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين * بئسما اشتروا به انفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ، فباءوا بغضب على غضب ، وللكافرين عذاب مهين * واذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ، ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم ، قل فلم تقتلون أنبيـاء الله من قبل ان كنتم مؤمنين * ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون » ·

٨٦ : ٩٢

وفى السورة المدنيـة الاولى ، نزل الوحى بتحـول قبلة المسلمين شطر المسجد الحرام ، فهل كان هذا من تعاليم الاحبـار الذين جادلوا فيه وأثاروا سفهاءهم عليه ؟·

« ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك ، وما أنت بتابع قبلتهم ، وما بعضهم بتابع قبلة بعض »·

ـ ١٤٥

ومعها من آيات آل عمران ، ثالثة السور المدنية فى ترتيب النزول ، فى كفار اليهود أعداء المسلمين وأعداء كل البشر :

« ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا الا بحبـل من الله وحبل من النـاس ، وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » ·

فهل يكون من هؤلاء ، أساتذة دين لنبى يتلو هذه الآيات ، ومثلها معها ، من مستهل الوحى بالمدينة ؟

أو هل تتلمذ عليهم وهو يخوض جولات الصدام المسلح مع عصاباتهم ـ بنى قينقاع ، وبنى قريظة ، وبنى النضير ، ويهود خيبر ، بعد أن استنفروا فى الجدل والفتنة والغدر والتآمر ، كل ما فى جعبتهم من سهام سامة ؟

الى أواخر العهد المدنى ، كان النبى عليه الصلاة والسلام ، يتلو ما نزل فيهم من آيات الحشر والصف والمائدة ، لا يعلم التاريخ أنهم كفوا عن الكيـد

للاسلام وحربه ، حتى تم اجلاؤهم وتطهير أرض المبعث من وبائهم •

لم يبق اذن مجال لممارسة الاساتذة الاحبار عملهم التعليمى ، الا رحلة « محمد » فى طفولته مع أمه الى يثرب ، فلعلهم لقنوه من تعاليمهم وهو فى السادسة من عمره أن يحرم الاسلام الربا ، ويمحق أكل أموال الناس بالباطل ، ويقص ما كان من جرائمهم ••• عندما يبلغ رسالته ، بعد أربع وثلاثين سنة من رحلته تلك الى يثرب !

بعدها كانت رحلته فى صباه الباكر الى الشام ، فى صحبة عمه « أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم » وهى الرحلة التى تعلق بها من سلطوا الضوء على مرور أبى طالب بدير بصرى ولقائه « الراهب بحيرا » •

ويصح فى منطقهم ، أن يتلقى صبى أمى من أبناء مكة ، أسرار اللاهوت وعلم الكتاب ، فى لقاء عابر بأحد الرهبان النساطرة بدير بصرى ، مر به عبورا الوف وألوف من القرشيين كهولا وشبانا ، فى رحلاتهم التجارية الى الشام ؟!

قدر « جولدتسيهر » أنه مطـالب بما قدمه بين يدى دعواه : « الكشف الدقيق عن هذه العنـاصر الاجنبية التى امتصهـا الاسـلام ، منـذ ولادته ، وأصبحت لا تبدو على حقيقتها الا بالتحليل الدقيق والبحث العميق » ٠

والذى نقلناه من كلامه فى (محمد والاسلام) لا يعدو أن يكون أقوالا مرسلة متهافتة ، يرفضها المنطق ويكذبها واقع التاريخ ٠

فأين اذن العناصر الاجنبية فى القرآن ، بنصه الموثوق الذى لا تتعلق به أدنى شبهة من تحريف ؟ ٠

الاسرائيليات التى دسها أسلافه على تأويل القرآن ، نشبت حقا فى كتب التفسير ، وبقى نصه الثابت المحكم ، يكفى وحده لنفيها عنه ٠

فمن أين يمكن أن ينفذ جولدتسيهر الى هذا القرآن ، بحثا عن « عناصر أجنبية » يشده بها الى أصولها الدعاة ؟ ٠

هنا أسعفه « ذكاء الالمعى » :

القرآن مصدق لما سبقه من الرسالات الدينية ، وقد استصفى منها ، بعد فترة من الرسل ، ما هو من جوهر الدين ، فنزلت به آيات محكمات لا سبيل الى تحريفها كما حرفت كتب سابقة ٠

فليكن هذا هو مدخل مستشرقى اليهود الى القرآن ، يشدونه الى الملل والعقائد قبله ، بتوثيق موهم يجوز على غير فقهاء النصوص وعلم الاديان المقارن ألا يصلى المسلمون مثلا ويصومون ؟ أهل الكتـاب من قبلهم يصلون كذلك ويصومون !

ألا يقيم المسلمون شعائر الحج ، من قبل الاسلام بدهور وأحقاب ، اذن ابراهيم الخليل فى الناس بالحج ألا يبشر نبى الاسلام وينذر ، ويحذر منغضب الله وحساب الآخرة ، بما تلقى من كلمات ربه ؟

من قبله بشر سائر الرسل وأنذروا ...

ثم أليس فى القرآن أسماء أنبياء ذكروا فى التوراة ، وأخبار من قصص الغابرين يقدم منها العبرة ، وفى (العهد القديم) منها مزيد تفصيل واسهاب ؟

بل أليس فى القرآن ألفاظ يمكن التنظير لها بأخرى من الاسفار وشروح بنى اسرائيل ؟...

على هـذا ومثله ، اتكأ « جولدتسيهر » فيمـا اعتسف من الادلة على دعواه ، وكأن القرآن فيمـا يصدق لما بين يديه ، تلقين الأسـاتذة الأحبـار والرهبان ، فلنقرأ مثلا من خلل المنطق فى اعتساف الدليل :

[شعيرة الصـلاة التى كانت بصورتهـا الاولى من قيـام وقراءة ، وبما فيها من ركوع وسجود ، وبما يسبقها من وضوء ، تتصل بالمسيحية الشرقية .

والصوم الذى جعل أولا فى يوم عاشوراء : محاكاةللصوم اليهودى الاكبر ، ثم نقل بعد ذلك الى شهر رمضان ... وفيمـا يتعلق بشعائر الحج التى نظمها الاسلام ، أو على الاحرى احتفظ بها ، من بين تقاليد العرب الوثنية ، جعل محمد أهمية كبرى لنية التقوى التى يجب أن تصحب هذه الشعيرة ، حين يقول : « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » (الحج ٣٧) والجزاء الاكبر للاخـلاص (سورة غافر ، ١٤) وتقـوى القلوب (الحج ، ٣٢) والقلب السليم (الشعراء ، ٨٩) : مما يطابق الكلمةالعبرية « لبح شالم » الواردة عن « داود » فىالمزامير] ١٧

ولا ندرى ماذا يعنى بالصلاة فى صورتها الاولى ؟ وهل كانت للصلاة صورة أولى وأخرى ؟ الذى ندريه أن فريضة الصلاة شرعت من أول المبعث ، بشاهد من آيات :

العلق : « أرأيت الذى ينهى * عبدا اذا صلى »

المزمل : « فاقرأوا ما تيسر منه ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا » ٠

والسورتان من أول الوحى !

وأحكام الصيام نزلت بها سورة البقرة المدنية ، وفيها تشريع صوم رمضان فريضة ، فكيف غاب عن مؤلف (العقيدة والشريعة الاسلامية) أن قوله بمحاكاة اليهود فى صيام يوم عاشوراء قبل الهجرة ، ثم مخالفتهم فى المدينة ، ينقض دعواه عن التأثير اليهودى فى العهد المدنى ؟!

وافتراء على الدين والتاريخ ، القول بأن شعائر الحج فى الاسلام ، مما احتفظ به من تقاليد العرب الوثنية ، وقد كان لكل قبيلة وثنها فى البيت العتيق تحج اليه وتطيف به فى الموسم وتلبى عنده ، حتى جاء الاسلام فرفع عن العرب اصر الوثنية ، وتطهر البيت الحرام من رجس الاوثان والاصنام منذ دخله المصطفى صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة فى السنة الثامنة للهجرة ومعه حشود المسلمين يطئون الاصنام محرمين ملبين قانتين ، هاتفين بدعاء نبيهم :

« الله أكبر الله أكبر ، لا اله الا الله وحده ، نصر عبده ، وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده ، لا اله الا الله ، ولا نعبد الا اياه ، مخلصين له الدين حنفاء ولو كره الكافرون » ٠

وتعرف الدنيا ، كل الدنيا ، أن جثمان « محمد ، عبد الله ورسوله » ، لم يدفن فى البيت الحرام مثابة حج المسلمين وقبلة أمتهم يولون وجوههم شطرها أينما كانوا ٠ حجهم الى بيت الله ، وعبادتهم له وحده ، واليه وحده السعى والقنوت والتلبية والضراعة ٠ وتشهدهم الدنيا فى موسم الحج ساعين الى البيت الحرام ، قد تجردوا من كل زينة وجاه وزهو ، وطرحوا عنهم مايتفاخر به الناس من أزياء وألقاب ورتب ومناصب ، وتماحت بينهم فروق الالوان

والأجناس والعناصر والطبقات والدرجات ، واستوى الملوك والرعايا ، فليسوا جميعا سوى عباد الله ، وما يتفاضلون الا بالتقوى ٠

فهل هكذا كانت طقوس حج العرب الى أصنامها فى البيت العتيق ، فى جاهليتها الوثنية ؟

والتقوى فى الاسلام ليست قصرا على شعيرة الحج ، فمع آياتها فى (الحج وغافر) ترد فى نحو مائتى آية ، تقرر أن التقوى هى محض الايمان ومناط شعائر العبادات وسائر الأقوال والأفعال ٠

وجاء « جولدتسيهر » بذكائه الالمعى فشد الكلمة القرآنية الى «لبح شالم» فى مزامير داود ، على وجه المطابقة ! وكذلك فعل بكلمات أخرى ! فالكلمة القرآنية « الصراط المستقيم » :

[ربما يمكن أن تقرب الى : الباب الضيق المؤدى الى الحياة ، فى (سفر متى الاصحاح ١٣/٧) فى هذا الطريق لا يكتفى بتقوى غاشة كاذبة ، بل المطلوب عمل الخير : « فك رقبة ٠ أو اطعام فى يوم ذى مسغبة ٠ يتيما ذا مقربة ٠ أو مسكينا ذا متربة ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة » وهذا تفصيل أو شرح مطول لما جاء به النبى أشعيا (اصحاح ٥٨/ ٦ : ٩) !

وصلاة المؤمن المسلم [يرجو بها وجه الله تقارن بما فى انجيل متى : الاصحاح ٦ / ٦] ـ ٢٤

[ومدين الذين أرسل اليهم شعيب (الاعراف ٩٥) هوالنبى يثرو المذكور فى التوراة] ـ ٢٩

[وهناك جملة تكررت كثيرا فى القرآن ، وهى وصف التعاليم الالهية بأنها « ذكر للعالمين » فكلمة العالمين لها فى القرآن دائما معنى : عالمى ٠ فالله « رب العالمين » المقصود هو الانفانية

بأوسع معانيها ، وذلك له ما يشبهه فى انجيل مرقص ١٦ / ٥] ٣٢

[وتحريم أكل لحم ممـا لم يذكر اسم الله عليه وانه لفسق

(الأنعام ٥٩) يحتمـل أن يكون مستندا الى عادة اليهود بالزام

Berkha قبل الذبح وقبل الاكل ، ويعد هذا فسقا ـ أنظر فقرات

« بيكنهوف » فى (قوانين الطعام على الطريقة اليهودية) طبـع

منستر سنة ١٩٠٧] ـ ٤٩

[وفكرة : « الـدين يسر لا عسر » وازن بينهـا وبين المبدأ

التلمودى : « كوعاخ دى هاتيرا عديف » أى أن قوة الاباحة لهـا

قيمة أكبر ـ أنظر : باب بيراخوت ٦٠ أ وفى مواضع أخرى] ٠

ولا أعرف هذه البراكاه ولا طقوس اليهود فى الذبح والطعـام ٠ الذى أعـرفه ويعرفه قومى أن اليهـود فى ديار الاســلام لا يأكلون اطـــلاقا مـن لحوم ذبائحنا ، بل لهم مذبح خاص وقصابون منهم ، يبيعونهم ما يســمونه كاشـــير ٠٠٠

ثم أعجب لخلل المنطق واعتساف الدليل :

كأن كلمة (العالمين) لا عهد للغات الدنيا بها ، الا فى انجيل مرقص ، ليقال ان القرآن جاء بما يشبهه !

ومبدأ « الدين يسر لا عسر » يطلب الينـا أن نوازن بينــه وبين المبـدأ التلمودى : قوة الاباحة ، لها قيمة أكبر ٠ وكأن شرائع الدنيا لا تعرفه الا فى هذا التلمود ليأخذه القرآن منه !

ليس هذا على أى حال ، بعجيب ممن يشد كلمات قرآنية مثل : التقوى ، والقلب السليم ، والطريق المستقيم ٠٠ الى مزامير داود وسفر اشعيا وانجيـل مرقص ٠

فلماذا لا يشد ألفاظ القرآن كله الى العربيـة فى جاهليتها ، وقـد نزل بلسان العرب ؟٠

بل لماذا لا يشد التوراة والانجيل والمزامير وسائر كتب المرسلين ، الى لغات الكفار من أقوامهم ، وما أرسل الله تعالى من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم ؟٠٠

كلا ، ليس هذا بعجيب من منطقه وهو يلتقط ألفاظا من القرآن فيشده بها الى الاسرائيليات ـ والانجيل أحيانا ـ ولا هو بمستغرب ممن يستدل على (العناصر الاجنبية فى القرآن) بأن الصلاة الاسلامية فى صورتها الاولى تتصل بالمسيحية الشرقية ، والصوم قبل الهجرة محاكاة لليهود ، وشعائر الحج مما احتفظ به الاسلام من تقاليد العرب الوثنية !

العبادات من قواعد كل الاديان والعقائد ، والشعائر تختلف ٠

وقبل المسيحية والموسوية بدهور ، كان البيت العتيق فى مكة مثابة للناس وأمنا ، وحرما مطهرا « للطائفين والعاكفين والركع السجود » ٠

وفى الماضى الموغل فى القدم ، عرف التاريخ معابد للامم قبل عصور الاديان السماوية الكبرى ، وكانت معابد مصر وبابل ، قبل خمسين قرنا واربعين ، حافلة بحشود العابدين ، وكذلك كانت المعابد فى الصين والهند وفارس ، وفيما لا أحصى من أقطار الارض ، موئلا للمتعبدين على تفاوت الملل والعقائد ٠٠٠

واذا كــان « جولدتسيهر » قد وجــد الجرأة على مثــل هـــذا التأويل الاسرائيلى لآيات القرآن المحكم وقواعد الاسلام الثابتة وشعائره البينة ·

فان السنة بلا ريب ، أرحب عنده مجالا وأيسر منالا وأقرب مدخلا · وقد كان بحسبه أن يتتبع مرويات أســلافه من اليهود الــذين قال بأنهم دخلوا فى الاسلام نفــاقا وجاءوا بمقولات ، « التماسا لمرضـــاة النبى » عليه الصــلاة والســـلام ···

غير أنه أبى الا أن يمضى على نهجه فى جرأة الدعوى واعتساف الدليــل وشطط التأويل · ولا أشغلكم هنا بجزئيات ملتقطة من حديث أو آخر ، يشدها بالاسرائيليات الى بضاعة قومه · فأخطر منهــا بلا ريب ، دعاواه الفــاحشة المرسلة التى يحكم بها على الحديث النبوى جملة ، كقوله :

[اذا ما نظرنا الى المواد **المعتبرة** فى الحديث ، ونظرنا الى **الادب الدينى اليهودى** ، فاننا نستطيع أن نعثر على قسم كبيـــر دخل **الادب** الدينى الاسلامى ، من هذه **المصادر اليهودية**] ـ ٤٣

هكذا ، بجرة قلم ، يتحول الحــديث النبوى من مصـــدر ثان للشريعة الاسلامية ، الى أدب دينى · ثم ترسل فيه مثل هــذه الدعوى الغليظة ، دون شواهد من نصوص الحديث أو من المصادر اليهودية للادب الدينى !

وأفحش منها دعواه :

[أن السنة استخدمت من قديم ، عن طريق الاجمـــاع ، فى نسخ القرآن] ـ ٥٣

وكأنه يجهل أن السنة مفصلة لما أجمل القرآن ، وليست ناسخة له ! وأن الاجماع ـ والقياس والاستصحاب وسائر أصول الفقه والاحكام ، انما تستند أســاسا الى نصوص من القرآن ، ومن الســـنة ، وأن أى خــلاف على حــكم شرعى ، يرجع فيه الى الاصلين ·

ولا يلبث أن يقـر بأن السنة مصـدر للتشريع الاسلامى بعـد القرآن ـ وليست أدباسلاميا يرده الىمصادريهودية مجهلة ـ لكنه لميقر بموضعالسنة، الا ليدعى أن هذا أيضا فكرة يهودية ! قال :

[هـذه الفكرة ، أعنى اتخـاذ قانون مقـدس مكتوبا أو مسموعا ، وراء القرآن : أخذت مكانا فى الاسلام أيضا ، كما هو الحال عند اليهود ٠ ـ ٤١

[ومن ناحيـة التطور الدينى الذى نعنى به هنـا ، لا يهمنا « الحديث » من ناحية شكله النقـدى ـ بقواعد علوم الحديث ـ وانما يهمنا من ناحيـة التطور ٠ كما أن مسألة صحته وقدمه ، تجىء متأخرة عن معـرفة : أن الحديث تتجلى فيه جهـود الامة الاسلامية فى عملها الشخصى الخالص (؟) ونرى ذلك كله من الامثلة الـكثيرة للاغراض التى لم **تكن فى القرآن** ٠ ذلك بأنه لم تندمج فى الحديث أمور القـانون والعـادات والعقـائد والافكار السياسية فحسب ، بل قد لف فيهكل ما يملكه الاسلام منمحصوله الشخصى وكذلك **الامور الغريبـة** عنه ٠ وقـد غير هـذا الغريب **المستعار** تغييرا أبعـده عن **الاصل** ـ الاجنبى ـ المأخوذ منـه ، وضم ذلك كله الى الاسلام : فهناك جمل أخذت من العهـد القديم والعهـد الجـديد ، وأقوال للربانيين أو مأخـوذة من الاناجيـل **الموضوعة** ، وتعاليم من الفلسفة اليونانيـة ، وأقوال من حـكم الفرس والهنود ٠ **كل ذلك** أخـذ مكانه فى الاسـلام عن طريق « الحـديث » ٠ حتى لفظ « أبونا » لم يعـدم مكانه فى الحـديث المعترف به ! وبهذا أصبحت ملكا خالصا للاسلام بطريق مباشر أو غير مباشر ، تلك الاشياء البعيدة عنه] ـ ٤٢

فلنـلاحظ أنه بدأ بالفرار من مواجهة ضوابط علمـاء الحـديث لصحة الحديث واتصال اسناده برواية العدل الضابط عن العدل الضابط الى منتهى

الاسناد الى الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم · وتجاهل مايفرضه المنهج ، من وجوب التثبت من صحة النص وتوثيق اسناده ، قبل النظر فيه والحكم عليه ·

وهان عليه التصريح بأن « صحة الحديث وقدمه » لا تعنيه ، ثم يزعم أن الحديث من العمل الشخصى للامة الاسلامية ، جمعت فيه الغريب المستعار من الافكار والعقائد والحكم ، وضمته الى الاسلام عن طريق الحديث !

الحديث ليس فيه أحكام وعقيدة لم يأت بها القرآن ، بل ليس فيه ما يخالف كتاب الاسلام الا فى وهم الجاهلين ودعاوى المبطلين · وجهود الامة الاسلامية لم تكن اضافة الى السنة ، بل كانت خدمة لها واستصفاء للصحيح منها بفحص أسانيد الرواية والتثبت من اتصالها ونقد الرواة وضبط طرق التلقى والاداء ، على ادق قواعد المنهج النقلى · تلك القواعد التى تأصلت فى علوم الحديث البالغ عددها نحو سبعين علما ، لا يجهلها عالم بنى اسرائيل مؤلف مذاهب التفسير وتاريخ العقيدة والشريعة فى الاسلام :

وواعجبا ! وزع السنة على : العهد القديم ، والعهد الجديد ، وأقوال الربانيين ، والاناجيل الموضوعة ، وتعاليم الفلسفة اليونانية ، وحكم الفرس والهنود ···

ولم يجد بشىء منها ، أى شىء ، على حكماء العرب وحنفائهم وشعرائهم قبل الاسلام ، وليسوا أبعد عن الصحابة الأميين ، رواة الحديث ، من حكماء الفرس والهنود وفلاسفة اليونان والربانيين !!

●●●

وهو يذكر فى سياق دعواه ، الحديث المتواتر عن النبى عليه الصلاة والسلام :

« من كذب على معتمدا فليتبوأ مقعده من النار » ، لكنه يلويه ليا ، لخدمة مزعمه ، فيقول من نفث اسرائيلياته :

[فمعنى أن الرسول قال ، أنه صحيح لا غبار عليه فى الدين ، أو أنه أمر مرغوب فيه **وكان يمكن أن يوافق عليه الرسول**• ويذكرنا هذا بما جاء فى (**التلمود**) من أن كل ما يقول أحد التلامذة فى العصور المتأخرة ، موافق لما أخبر به موسى فى سيناء ـ انظر تلمود أورشليم ، خجيجة : ١ / ٨] ٤٦

فليكن أن تلمودهم أخذ بما قاله التلامذة اليهود فى العصور المتأخرة ، وعد موافقا لما أخبر به موسى عليه السلام •

لكن الذى فى الحديث النبوى ، رواية متصلة الاسناد الى الصحابة عن رسول الله عليه الصلاة والسلام • وليس فى السنة على الاطلاق « ما كان يمكن أن يوافق عليه الرسول » بل السنة هى ما صح عنه صلى الله عليه وسلم ، من قول أو فعل أو اقرار • وفرق شاسع بين اقراره صلى الله عليه وسلم ، و « ما كان يمكن أن يوافق عليه » ؟!

على أن « جولدتسيهر » ما لبث أن تجاوز بالسنة ما كان يمكن أن يوافق عليه الرسول » الى القول بأن :

[السنة يمكن أن ندرجها بين الظواهر التى سماها « سبنسر » : « **العواطف** » القائمة مقام غيرها • وهى النتائج العضوية التى جمعتها بيئة من البيئات البشرية خلال الاجيال والاحقاب ، والتى تركزت وتجمعت فى غريزة وراثية تتألف منها الصفة أو الصفات التى يتوارثها أفراد هذه البيئة] ـ ٢٢٤

من عجب أن فاته أنه بهذا القول عن الغريزة الوراثية للبيئة خلال الاجيال والاحقاب ، ينقض أساس دعواه بأن الاسلام مزيج من عناصر أجنبية غريبة عنه ! فكيف صار « الغريب المستعار » الى غريزة وراثية لشعوب الامة الاسلامية فى أقطار المشرق والمغرب ، من القرن الاول للهجرة ؟

واذا بلغ بجولدتسيهر شطط القيـاس وجرأة التدليس وفحش الدعوى هـذا المدى ، وبلغ من تهافته فى اعتساف الدليـل أن يتعلق بلفظ واحـد مثل « أبونا » شاهدا على يهودية السنة » ٠

فليس يشق عليه بعد ذلك أن يمد شباكه الى ما بعد الكتاب والسنة من أصول التشريع الاسلامى ، ليشد وثاقها بالاسرائيليات الى بضاعة قومه :

وما اختلف الفقهاء المسلمون الا كما اختلف اليهود !

[وكلمة « يحيى بن سعيد » المتوفى سنة ١٤٣ هـ : « أهل العلم أهل توسـعة ، وما برح المفتـون يختلفون » ـ تذكـرة الحفاظ للذهبى ١/١٢٤ ـ شبيهة بكلمة : « العازار بن عزاريا » فى (باب خجيجة ٣) عن اختلاف الآراء **فى الشريعة اليهودية** ، وانظر سـفر الخروج ١/٢٠ ٠ وكـذلك فيمـا يتعلق بخـلافات المدارس المختلفة المتعارضة كمـدارس « شمايس وهليـل » التى جعلت من مبادئهـا : هـذا وذاك هـو كـلام الله الحى / ب عيروبهين ١٣ ٠ أما الحبر « سيمون بن بوخاى » فيعـد هـذه الاختلافات المذهبية فى الشريعة ، دليلا على نسيان التوراة : سفر التثنية ٨٤/٤٨ب / ١١ طبع فريدمان] ـ ٤٧ + ٢٨٧

وهو لا يدعى الجهل بأن القرآن لم ينس فينا كنسيانهم التـوراة ، وأن فقهـاءنا فى اختلافهم انمـا كانوا يحتكمون الى نصوص من الكتاب والسنة ٠ كما يذكر كذلك قيود أهل السنة فى التثبت والتوثيق ، وجهـاد أئمة السلف فى حفظها ، وتشددهم فى محاربة البدع الطارئة ٠

لكنه يلوى هذا كله أيضا ، ليجعلهم أمام الامر الواقع يقرون البـدع الطارئة والمنحولات الدخيلة ، ويتواطئون على اضافتهـا الى السنة ٠ قال :

[وقـد سهل كثيرا من الوجهــة النظـرية ، أن يفـرض المتشـددون قيـود أهل السـنة التى لم يتشـكك المسـلمون فى صحتها · ولكنها مع ذلك ، اصطدمت فى كل ناحية من النـواحى العملية بمقتضيات الواقع · لان تطور ظروف الحياة قد فرضت على الامة الاسلامية أحوالا مغايرة لمقتضيات السنة ، وجرتهـا الى ملابسات تخالف **تمام المخالفة** ، أسـاليب الحياة والفكر فى عهـد الصحابة · كمـا أن السوابق العديدة ـ لوضع الأحاديث وحيل الفقهـاء ـ والمؤثرات **الأجنبية** التى أحاطت بالمسـلمين ، حملتهم على أن يقوموا **بهضمهـا وتمثيلها وصهرها** · هـذه العوامل مجتمعة **حتمت** على المسلمين أن يبـادروا بفتح **ثغـرة** فى حصن السـنة المنيع التى يعدونهـا المعيار **الاوحـد** للحق والقانون · وهكذا انتهوا الى مفارقات دقيقة سهلت عليهم اقرار **كثير** من البدع التى فتحوا لها **أبواب السنة علىمصراعيها**] ٢٢٥

لا يقل أحد أن « جولدتسيهر » يجهل أنه ما منمسلم فى القديم أو الحديث يعد السنة المعيار **الاوحد** للحق والقانون ، ويعطل القرآن الكريم ، الاصل الاول للاسلام عقيدة وشريعة ، والمعيار الاول للحق والقانون فى الامة الاسلامية ·

وتعلم الدنيا ، لا التاريخ فحسب ، أن صحيح السنة والمذاهب الفقهية الاربعة ، اسـتقرت من القـرن الثـانى للهجرة · وأن المسلمين فى المشرق والمغرب ، كانوا يقرأون من أواخر القرن الثانى وأوائل الثـالث ، مدونات السنة فى موطأ مالك والأم للشافعى ومسند أحمد بن حنبل ·· ثم لم يمض بعدها غير وقت قصير ، حتى كانت كتب صـحاح الحديث الستة الامهـات ـ صحيحا البخارى ومسلم ، وسنن النسائى وأبى داود والترمذى وابن ماجن ـ قد استوعبت نهائيا كل الأحاديث التى صحت على شروط العلماء ، التى اتسع لها نحو سبعين علما من علوم الحديث ·

السؤال هـــو :

هل وقف تطور الحيـاة بالمسلمين عنـد القرون الثـلاثة الاولى التى استقرت فيها مذاهب الفقه ودونت صحاح الحديث والسـنة ، فمـا عادت تصطدم فى أى ناحيـة من النواحى العملية بمقتضـيات الواقع المغـايرة لمقتضيات السنة ؟٠

هل تجمد الزمن بالامة الاسلامية بعـد رسوخ الفقه وتدوين صـحيح السنة ، فما عادت تواجه ملابسات تخـالف **تمام المخالفة** أساليب الحيـاة والفكر فى عهد الصحابة ؟

أو هـل تعطلت المؤثرات الأجنبيـة من ذلك الزمن المبـكر - القـرنين الثانى والثالث للهجرة - فما عادت تحيط بالمسلمين وتحمل أئمتهم عـلى أن يقوموا بهضم جديد المؤثرات وصهرها فى السنة ؟

ان السنة منذ وثقت مروياتها فى كتب الصحاح الامهـات ، لم يضف اليهـا حديث يحج به ٠ ومقتضى القـول بتواطؤ علماء الامة على اقرار البدع الطـارئة ومقتضيات الحياة المتطورة ودواعى المؤثرات الاجنبية ، أن الامـة لم تواجه قط أى شىء من هـذه الدواعى والملابسات والمقتضيات والمؤثرات ، فى القرون العشرة من زمن استقرار المذاهب الفقهية وتدوين صحاح السنة ، الى عصرنا الحديث ٠ ومرت بها تلك القرون العشرة الطويلة بكل ملابساتهـا المعقدة وتيـارات الغزو الفكرى الجـائحة ومحدث المقتضيات الطـارئة ، لم تكن خلالهـا فى حاجة الى أن يفتح لهـا علمـاؤها ثغرة فى حصن الســنة المنيع ، كمـا احتاجت الاجيال الاسلامية الاولى ! تلك الثغرة التى ما لبثت أن صـارت بعد أسطر فحسب ، من عبـارة « جولدتسيهر » الى فتـح أبواب السنة على **مصراعيها** للبدع الطارئة والعناصر الاجنبية !

وهذا كلام معناه : ليست لنا عقول ٠٠٠

●●●

بعد الكتـــاب والسنة ، جاء دور التفســير وتطور الفقه • واذ عرف « جولدتسيهر » ما شــاب كتب التفسير من اسرائيليات أســلافه ، عــده المرجع الصحيح لفهم القرآن ، والصورة الكاشفة عن تاريخه الداخلى • متكئــا فى دهاء على قاعدة عامة فى : فهم الأديان من شروح مفسريها • قال :

[وأهم فى نظرنا من تفصيل هذه الخلافات المذهبية فيمــا يظهر لنا ، تعرف الميول العامة التى سادت الفقه فى تطوراته • ويجب علينا أن نبين لهؤلاء الذين يريدون أن يتعرفوا الاسلام ، بعض ما يفيدهم فى رسالة تفسير الكتاب : فالاديان التى تؤخــذ عقائدها وأشكال أعمالهــا من مراجع مقدسة محــــدودة ، تجىء تطوراتها الفقهية والاعتقادية من أعمال الشرح والتفسير للكتب المقدسة • وتاريخ الاديان فى مثل هذه الدائرة ، يســاوى تاريخ التفسير المكتوب ، ويتفق فيهــــا الى حد كبير مع الاســلام الذى يتـــراءى تاريخه الداخلى ، فى الطـــرق التى شرحت كتبـــه المقدسة] ٥٧

ونراه هنا وضع رهبان النصارى مع أحبار اليهود فى سياق واحــــد ، بما يوهم التعميم والمماثلة فى موقفهم جميعا من الاسلام ، وموقف الاســلام منهم ! المدينة لم يكن فيها نصارى قط ، والجدل فيها انما كان مع أهل الكتاب اليهود وأحبارهم الذين تصدوا لحرب الاسلام بأخبث الذرائع ، من يوم وصوله الى دار الهجرة • ويكفى للتمييز بين الفريقين ، أن نتلو آيتى المائدة ، خطابا للنبى عليه الصلاة والسلام ، فى أواخر الوحى المدنى :

« لتجدن اشد الناس عداوة للــذين آمنوا اليهود والــذين اشركوا ، ولتجــدن اقربهم مودة للذين آمنوا ، الــذين قالوا انا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون *

واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين » ٠

ومعها ما فى (السيرة النبوية ، وتاريخ عصر المبعث) عن تقدير المسلمين لكرم النجاشى النصرانى وحسن جواره للمسلمين فى هجرتهم الاولى الى الحبشة ، وعن لقاء المصطفى صلى الله عليه وسلم ، لوفد نصارى نجران ٠

من ثم اقتحم الميدان وجال فيه وصال : استقصى ما فى حواشى التفسير من مدسوس الاسرائيليات ، وشد القرآن بها الى تراث اليهود بتوثيق موهم ، مع التركيز ـ كما رأينا ـ على الصحابى الجليل « عبد الله بن عباس » لينميه ألى المدرسة اليهودية ، وعلى الامام ابن جرير الطبرى فى تفسيره المعمدة ، مستغلا أمانته فى اثبات ما وصل اليه من مرويات فى التفسير ، على ما سبق بيانه فى سياق العرض التاريخى للاسرائيليات ٠

●●●

وهان عليه بعد ذلك أن يرد كل المدارس والفرق الاسلامية ، وكل ما عرف تاريخنا من طوائف مذهبية وأصحاب النحل والبدع ، الى بضاعة أجنبية مستعارة ٠ لا يقول فى ذلك بمجرد التأثر بالتيارات الاجنبية ، بل هو الاخذ المباشر **والنقل الحرفى** ، فيقول مثلا فى مدرسة التصوف فى الاسلام :

[وقد أكمل أصحابها مذهبهم بما انتحلوه من شواهد وعبارات من العهد الجديد ، اذ أن أقدم مؤلفات الزهد فى الاسلام ، تحوى كما أوضح « الاستاذ مرجليوث » شواهد خفية كثيرة منتحلة من أسفار العهد الجديد ٠ وقد سبق أن بينا أن هذا التصور ـ الاسلامى ـ للحياة النسكية ، مستمد من فكرة الرهبنة المسيحية التى يتفق مثلها الاعلى مع المبادىء التى عرضناها ـ للزهاد المسلمين ـ اتفاقا يكاد يكون **حرفيا** ٠ ومما هو جدير بالذكر ، أن فقرات الانجيل التى يكثر الاستشهاد بها فى الحكم

التى تحث على الزهـــد (كمـــا فى انجيـل متى : الاصـحاح ٢٥/٦ : ٣٤ ، وانجيل لوقا : الاصحاح ٢٢/١٢ : ٣٠) توجـــد بنصها فى لب هذه المبادىء الاسلامية الخاصة بالتوكل] ١٣٦

كلامه هـــذا عن الاخذ **الحرفى** ، ونقـل الفقرات الكثيرة **بنصهـــا** من الاناجيل ، وليست بحيث تخفى ، ينقض أساس دعواه فى مدخل كتابه ، عن العناصر الاجنبية التى أخذها الاسلام **وامتصها وأخفاها وصهرها** فى بوتقتـه الخاصة ، فصارت لا تبدو على حقيقتها الا بالتحليل الدقيق والفحص العميق !

وواضح هنا ، أن تبرع بالزهد فى الاســلام لرهبــان النصرانية ـ ولا رهبانية فى الاسلام ـ حين شق عليه أن ينمى هذا الزهد الى قومه اليهـود ، وان حرص على أن يضع مع الرهبان [وراء الزهاد المسلمين ، من يدعى أبا اسرائيل] ؟! ص ١٢٧

وكذلك كان موقفه من التصوف الاسلامى الذىتركه للأفلاطونية الحديثة، وان لم يستبعد :

[فعل المؤثرات الاخرى التى لم تكن أقل أهمية ، كالسريانية والمسيحية ٠ وعنـد القـــاء نظرة عـــامة على تاريخ التصوف الاسلامى ، لا يمكن أن نتجاهل هذه المؤثرات الهندية والسريانية التى تخطت أفقه الى الآثار الادبية **والفكر الدينى** الاسلامى]

١٤١ : ١٤٥

ولم يبخل على الوثنية الآسيوية القديمة : بوذية وبرهمية ومجوسية ، وصابئة ، بعطائها للفكر الاسلامى الذى عرضه مشحونا بالخرافات (١٩١ : ٢٥٠)

وضن على حنفاء العرب وحكمائهم فى الجاهلية بأى أثر مع السريانية والهندية والافلاطونية ورهبان النصرانية ٠ كما ضن على الوثنية العربية بأى موضع مع الوثنيات الآسيوية القديمة ٠

بل لم يفته من التطور السياسى للنظم الاسلامية ، أن يشد سـياسة الامويين الى أحـد ملوك بنى اسرائيل ، على وجه التشبيه والتنظير ٠ قال :

[وقد كانت المحافظة علىقوة الاسلام فى الداخل والخارج، هى ما اعتبره الامويون أهم واجبـات الخلفـاء ٠ وكان فى ظنهم أنهم بذلك يخدمون الدين ٠ لذلك كـان كل من حاول الوقوف فى طريقهم يعامل معاملة الثائر على الاسلام ، كمـا كان يفعل الملك الاسرائيلى « آخاب » حين قال عن النبى ايليا الغيور : « أوخير اسرائيل » ى مثير شعب اسرائيل ، سفر الملوك الاول : الاصحاح ٩٧/١٨] ٧٢

ولا أدرى وجــه التنظير لسياسة الامويين وحـدهم ، بالملك الاسرائيلى « آخاب » ـ الذى أشك فى أن أحدا من الامويين سمع باسمه ـ دون ســائر النظم الحـاكمة ، القديمة والمحدثة ، وهى جميعـا بلا استثناء ، تأخـذ نفس الموقف من محاولى الوقوف فى طريقها !!

فهل بين علماء التاريخ السياسى ، العام والخاص ، من يدرى فى تاريخ النظم السياسية ، نظاما يعرف بنظام « آخاب : أوخير اسرائيل » لنصدق أن الامويين ساروا على نهجه ؟!

ثم لا أمضى فى متابعة نقل اسرائيليات ذلك « الحجة الالمعى الذكاء فى خير ما كتب عن الاسلام » كما قرر مترجموه ، فما هى على كثرتها وخبث مساربها ، سوى خيوط من نسيج معقد يرد الاسلام أجمع الى بضاعة قومه وغيرها من الاجنبى المستعار ، وجزئيات من دعواه العامة الشاملة التى هى لب موضوع كتابه العقيدة والشريعة فى الاسلام ، ومسار فكرته مع ما سماه : تاريخ التطور العقيدى والتشريعى فى الديانة الاسلامية ·

بحيث تبدو فيه أمة الاسلام وكأن لم يكن لها عمل قط ، على مدى قرون ذات عدد ، سوى أن تعبىء الاجيال بعد الاجيال من الصحابة والتابعين والفقهاء والمحدثين والمتكلمين والفلاسفة والزهاد والمتصوفة ، لتلفيق اسلام من كل ما عرفت الدنيا من كتب وملل وعقائد ومذاهب وتعاليم وحكم وأفكار وخرافات ، وأنها من عهد أميتها صدر الاسلام ، لم تحط علما فحسب بمقولات أهل الكتاب والربانيين واللاهوتيين وفلاسفة اليونان ومشرعى الرومان وحكماء الهند والصين والفرس وكهنة البوذية والصابئة وزهاد السريان والافلاطونية الحديثة ···

بل انها تمكنت كذلك ، بقوة ميتافيزيقية خارقة ، من أن تخفى كل هذه العناصر الاجنبية المستعارة ، وتصهرها فى بوتقتها بمهارة فاتت على الدنيا والتاريخ ، لم يدريا عنها شيئا حتى كشفها علماء بنى اسرائيل من مستشرقى اليهود فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر !

وأعجب من هذا وذاك ، أن العرب الاميين من جيل الصحابة الذين خرجوا فى عهد الخلفاء الراشدين ـ قبل منتصف القرن الاول للهجرة ، يحملون لواء الاسلام فى كتائب الفتوح الكبرى ·

هؤلاء المسلمون الاولون ، وجمهرتهم من العرب الاميين ، جازت حيلتهم على الشعوب ذات الميراث الدينى والحضارى العريق ، فاستجابت للاسلام

ودخلت فيه عن طواعية وهجرت له موروث عقائدها ولغاتها وثقافاتها ، وهى لا تدرى أن هذا الاسلام لم يأت بجديد قط ، غير ما انتحله من فلاسفة مدرسة الاسـكندرية بمصر ، ورهبـان النصـارى ومتصوفى السريان فى أديرة مصر وصوامع الشام ، وحكمـاء الشرق الآسيوى فى فارس وما وراء النهر ، مع اسرائيليات أهل الكتاب الذين كانوا ناشبين فى شمال الحجاز نفسه !

وأبعد فى العجب من كل ذلك ، أن أحبار اليهود فى عصر المبعث ، فاتهم ما أخذ تلميذهم ـ نبى الاسلام عليه الصـلاة والسـلام ـ من بضاعتهم ، فلم يشـيروا قط فى جدلهم الدينى معـه ، الى أى نص لآية قرآنية يردونهـا الى اصحاح من أسفار العهد القديم ، أو ينظرون لها بما فى التلمود !!

●●●

مازلت أقول : ان كتاب « جولدتسيهر » ليس أخبث ما كتب قومه ، بل هو عند مترجميه الازهريين الفضلاء : « من خير ما كتب فى الاسلام » ٠

فهل كان مستشرقو اليهود وهم يخرجون على الناس بمثل هذه الدعاوى فى فحش جرأتها وخبث تدليسها ، لا يحسبون حسابا لوعى النقاد من المؤرخين والعلمـــاء ؟٠

يبـــدو أنهم كـــانوا مطمئنين الى ندرة المتخصصين فى عـلم الاديان المقارن ، ممن صح لهم الجمع بين فقه النصوص الاسلامية ، والدراية بما وضع حيالها فى عرض الدعوى والاستشهاد لها ، من نصوص اسرائيلية وغيرها من تراث مختلف الامم والملل وقديم الثقافات والوثنيات ٠

فلم يكن عجبا وقد ملأوا مكتبة الاستشراق بهـذا الحشد من دراساتهم للاسلام عقيدة وشريعة وتاريخا ، مرتدين أقنعـة العلماء وزى البـاحثين ، أن سيطروا على الفكر الاوروبى بمقولتهم عن [العناصر الاسرائيلية التى شاركت بأكبر قدر فى القرآن ، وأثرت الى أبعد مدى فى نبى الاســـلام عليه الصـلاة والسلام ، ثم فى حركة التطور التاريخى للفقه والفكر الاسلامى]

مثلما سيطروا على الفكر الحديث بمقولاتهم فى السامية ٠

ولا أستشهد لسيطرة اسرائيلياتهم التى شدوا بها الاسلام الى تراثهم الدينى ، بالمعروفين من الأوروبيين بالعـداء للاسلام والحقد على نبيه عليـــه الصلاة والسلام ، من أمثال كايتانى وشيخو ٠٠

بل أستشهد بأكثر من عرفت منهم نزاهة واعتـدالا وسـعة أفق ، وهو العلامة الفرنسى « جوستاف لوبون » الـذى تورط فى مثل ما يلى من مقولات لا يطمئن اليها عقله وضميره ، ولا يقبلها ما علم من الاسلام وتاريخه : (١)

---

(١) ما ننقله هنا ٠ من كتابه (حضارة العرب) مذيل بأرقام الصفحات فى الترجمة العربية للأستاذ عادل زعيتر ٠

[وتقول القصة ان محمدا سافر مرة مع عمه الى سورية فتعرف فى بصرى براهب نسطورى فى دير نصرانى ، فتلقى منه علم التوراة . ـ ٣٠

[ولم يخبرنا التاريخ عن سيرة محمد فى السنوات الخمس عشرة بعد زواجه بخديجة ، الأيم الثرية . **ويفترض** ، وان لم **يقم دليل على ذلك** ، أنه كان يفكر فى أثنائها فى **مبادىء دينه** الذى سيكون زعيمه . ولم **يبد** منه فى تلك السنوات **أى نفور** من عبادات العرب مع ذلك ، كما أنه لم يقع فيها ما يدل على تفكيره فى قلب الاوضاع رأسا على عقب . . ـ ١٣١

[وكان ـ فى عهد الاضطهاد بمكة بعد المبعث ـ يقابل ضروب الأذى والتعذيب ، بالصبر وسعة الصدر . وكان **يجتذب ببلاغته** فى كل يوم أصحابا آخرين ـ ١٣٣

[ويعد العرب القرآن أفصح كتاب عرفه الانسان ، ومع ما فى ذلك من **مبالغة شرقية** ، نعترف بأن فى القرآن آيات موزونة رائعة مما لم يسبقه اليه كتاب دينى آخر . ويقرب وصف الكون فى القرآن ، بما فى **الديانتين السامیتين** اللتين ظهرتا قبل الاسلام: اليهودية والنصرانية . **وزعم** أن الروح الآرية ، الفارسية أو الهندية ، ظاهرة فى النصرانية والاسلام على السواء ، ونحن نراها فى الاسلام ضعيفة الى الغاية . ـ ١٤٩

[ومحمد لم يزعم أنه **يكتب** ـ القرآن ـ من أجل الفلاسفة ، وكان من **مقاصده أن يقيم دينا سهلا يستمرئه قومه** ، فوفق الى ذلك حين **أخذ من الاديان** الاخرى ما يلائمهم . ولم **يفكر** محمد قط فى ابداع **دين جديد** ، وهو الذى أعلن أنه يسير على غرار من تقدمه من أنبياء **بنى اسرائيل** : من ابراهيم الى عيسى ـ ١٥٠

[اذا رجعنا القرآن الى **أصوله** ، أمكننا عد الاسلام **صورة مختصرة** من النصرانية · **ويختلف عنها** مع ذلك فى كثيـر مـن الاصول (!؟) ولا سيما فى التوحيد المطلق الذى هو أصل أساسى ·· وللاسلام **وحــده** كل الفخار بأنه أول دين أدخل الى العـالم التوحيد المحض] ـ ١٥٨

●●●

هكذا شوشت الاسرائيليات عليـه ، فلم يقلت خبث استغلالها تصـديق الاسلام لما سبقه من رسالات الدين ، وأمكنه عد الاسلام ـ اذ رجعنا القرآن الى **أصوله** ، صورة مختصرة من النصرانية · مع اقراره فى نفس الفقـــرة باختلافه عنها فى **كثير من الاصول** ، ولا سيما فى التوحيد المحض : جوهـر العقيدة الاسلامية ·

وجازت عليه المقولة الاسرائيلية فى رحلة سورية التى زعموا أن محمدا تلقى فيها علم التوراة ·

فردد القصة دون أن يقف ليسأل : الراهب نسطورى والدير نصرانى ، أفما كان الاولى أن يعلمه علم الانجيل ؟

ويعلم من ؟ صبيا أميا من قوم أميين ، مر به عابرا فى صحبة عمه مع قافلة قريش الى الشام ، لم يتخلف عنها يوما واحدا ليتاح له علم التوراة !

ان أحدنا ليقيم الشهور فى بلد أجنبى فلا يتعلم لغته ! وان أحدنا ليخالط سنين قوما على غير دينه ، فلا يتلقى عنهم معرفة بدينهم فضلا عن أن يفقـه علم كتابهم !

وان أحدنا قد يكون أبوه من فقهاءالاسلام أو علماء اللاهوت ، ثم لا يصح له من الفقه الدينى ما يجعله عالما كأبيه !

بل لماذا لا أقول : ان طلاب كليات اللاهوت يمضون فيها السنين عـددا منقطعين للدرس ، ثم لا يصح لهم « علم التوراة » على سواء ، فضلا عن أن يصح لاحدهم ـ وقد يكون عبقريا المعى العقل نافذ البصيرة مثل جولدتسيهر ـ أن يغير تاريخ العـالم الدينى والسياسى والحضارى · كمـا فعل ذلك اليتيم الهاشمى الامى ، بما زعموا انه تلقى فى صباه الباكر من علم التوراة ، على راهب دير نسطورى مر به عابرا مع عمه ابى طالب ، فى طريق قافلة قريش الى الشام !·

مفهوم أن سيطرة مستشرقي اليهود على الغرب الاوروبى باسرائيلياتهم التي شدوا بها الاسلام الى بضاعتهم ـ وبضاعة آخرين ممن وزعوا الاسلام كله على تراثهم ، يمكن أن تؤازر السياسة الصهيونية فى استدراج العالم الغربى الى تحقيق مآرب اليهودية العالمية ، فى اتجاهها الى أرض الميعاد ٠

لكن ، ماذا عن الشرق الاسلامى ؟

كانوا على يقين أن علماء بنى اسرائيل المستشرقين ، بمعزل عن ضمير هذه الامة ووجدانها ، ومن بينها وبينهم حجاب ٠ والذى كتبوه عن الاسلام ـ فى القرنين الماضيين ـ بعيد عن جماهير شعوبها التى لا تتصل بالثقافة الغربية ، فضلا عن أن تتصل بمكتبة الاستشراق ٠

واذن فلتبق بضاعة الاسرائيليات حيث هى ، تعمل عملها فى مجال الفكر الغربى ، ريثما يتم اعداد التربة الاسلامية لبذورها السامة ، من خلال الغزو الفكرى : الاستعمارى والصليبى والالحادى ٠ فكان اليهود وراء كل محاولة تفتن من تفتن من أبناء هذه الامة عن دينها الذى تعتصم به فى صراع البقاء ، وتستبسل فى الغيرة عليه والنضال عنه والجهاد فى سبيله ٠

●●●

بعيدا فى الشرق الآسيوى الاسلامى ، كانوا وراء الخارجين على الاسلام بنحل هدامة ، يمولها اليهود ويتولون بأجهزة دعايتهم المدربة ، عرض رسالتها ونشر تعاليمها فى المؤتمرات والمحافل الدولية ٠

ويتظاهر جنود منهم بانتحال هذه النحل الخارجة على الاسلام ، ليكونوا دعاتها المبشرين بها فى العالم الجديد الذى يسخرونه لقضاء مآربهم ٠

ثم كانت الحرب العالمية الاولى ، فرصة لتعبئة البهائيين فى عكا وحيفا ، لانهاك الرجل المريض من داخل ، ودفعه حثيثا الى أزمة الاحتضار ٠ مراكز

البهائيين هناك كانت أوكارا للجاسوسية ومباءة لتفريخ جراثيم السموم الفتاكة ، وفيها تم عقد الصفقات لشراء الخونة من ضباط الجيش التركى ورجال الدونمة ، بالاموال اليهودية التى وضعت تحت تصرف عبد الشيطان ٠

وتسجل وثائق المرحلة ـ وقد كشف عن كثير منها ممثل ايران فى الندوة الاسلامية العالمية بمكة المكرمة قبيل موسم الحج ١٣٩٢ هـ ـ أن الدولة العثمانية تلقت النذير تلو النذير بما كان يدور فى أوكار البهائية من مؤامرات وصفقات ، فصدر الامر العالى بمشورة جمال باشا ، بصلب عبد البهاء وأشياعه فى حيفا ، وقت أن حاصرها الجيش الانجليزى ٠ فضغط زعماء الصهيونية على القادة الانجليز لانقاذ حليف الشيطان وجنده ، فكانت المهمة الاولى للجيش البريطانى اثر اقتحام حيفا ، المبادرة الى انقاذ عبد البهاء وعصابته ، والابراق الى لندن لتذيع على العالم « بشرى نجاة الذات المباركة » ٠

وذلك مما اعترف به « شوقى أفندى : حفيد عبد البهاء وخليفته » فى المجلد الثالث من كتابه (البديع) قال :

[من المناسب أن ندرج ها هنا ، الجهود التى بذلت عند محاصرة مدينة حيفا ، للحفاظ على حياة حضرة عبد البهاء : فعندما ظهرت بوادر الخطر ، أرسل « اللورد كرزن » على جناح السرعة تقريرا الى وزارة الخارجية البريطانية يلفتها الى أهمية حفظ حياة حضرة عبد البهاء ٠ ويوم وصول التقرير أوعز « اللورد بلفورد » الى « الجنرال أللنبى » بوضع كل امكانياته لحفظ وصيانة حضرة عبد البهاء ورفاقه ٠ فأبرق الجنرال بعد فتح حيفا الى لندن ، يطلب اعلان بشرى سلامة الذات المباركة ، على العالم٠ ونبه على الحاكم العسكرى لحيفا أن يتخذ التدابير اللازمة لحفظ الذات المباركة ، لان التقارير الواردة كانت تشير الى أن السلطات العثمانية قررت عند الانسحاب من حيفا ، أن تصلب حضرة

عبد البهـاء وعائلته فى جبل الكرمل • وكانت هـذه هى الخطة المرسومة من قبل جمال باشا]

ولم يكتم « شوقى أفندى » فرحة البهـائيين بخـلاص فلسـطين من نير الخلافة الاسلامية ، وابتهاجهم بنعمة الاحتلال الانجليزى للاراضى المقدسة ـ تحت الانتداب ـ وغبطتهم بالمكافأة السخية التى نالوها أجر جهـادهم الاثيم الملعون •

كتب فى الجزء الثالث من (البديع) :

[وعلى أثر الاحتلال البريطانى للاراضى المقدسة ، تمكنا من التخلص من المخاطر الجسيمة التى كنا نتعرض لهـا خلال خمس وستين سنة من الحياة المنورة للشرع البهائى القدير • وانجلى بدر الميثاق الـذى كان مخسوفا بالمحن والبلاء ، وتجلى أمر الله من جديد •

[لقد صممت الحكومة البريطانية بعد انطفاء نيران الحرب، على أن تكافىء حضرة عبد البهاء على الخدمات التى أداها لهم ، فمنحته لقب فارس مع وسام خاص قدمه لحضرته فى حفلمشهود بمقر الحـاكم الانجليزى لحيفـا ، حضرته شخصيات هـامة من مختلف الشعوب والامم ، ومن بينهم : الجنـرال أللنبى قـائد قوات الاحتـلال ، والسير هربرت صـامويل المندوب السـامى ـ اليهودى ـ وبيتر رونالد حاكم القدس الشريف • كما أعفيتمن الرسوم الحكومية كل الاراضى والممتلكات التابعة للمقام الاطهر ، بناء على الاوامر الصادرة من مركز الحكومة بلندن الى المندوب السامى للدولة البريطانية البهية]

وقبل وعد « بلفور » بسنين ، تنبأ البهاء وعبـده ، [بتحقيق الوعـد الالهى لبنى اسرائيل] وبشرا بقيام مملكتهم فى أرض الميعاد • فلما قامت ،

عكف « شوقى أفندى » على تراث أسلافه فاستخرج منها نبوءاتهم وأعادنشرها فى كتابه (التوقيعات المباركة) الذى يبـدو أشبه بكشف حسـاب ينكر بنى اسرائيل بقديم خدمات البهائية ٠

ولم تقصر اسرائيل فى تقديم جديد من الثمن لاوليائها :

[اعترفت بأصالة واستقلال هذه العقيدة الالهية ، وأقرت بها لتسجيل عقد الزواج البهائى ٠ وأقرت ما سبقها اليه الانتداب البريطـانى من اعفـاء جميع الممتلكات البهـائية من الضرائب والرسوم ٠ وألغت جميع الاوقاف الاسلامية فى مروج عكا وجبل الكرمل . لبناء المقام الاعلى ! وأقرت بصورة رسمية . الاحتفـال بالايام التسعة المباركة المحرمة] ؟!

ولم يترك أقطاب اسرائيـل فرصة تفوت . دون أن يعبروا عن امتنـانهم لولاء البهائية ٠ كتب شوقى أفندى فى (التوقيعات المباركة) :

[لقـد تحقق الوعد الالهى لأبنـاء الخليل ووارثى الكليم ـ موسى عليه السلام ـ واستقرت الدولة الاسرائيلية فى الاراضى المقدسة ، وأصبحت العلاقات وطيدة بينها وبين المركز العـالمى للجامعة البهائية . واعترفت بهذه العقيدة الالهية]

وفى سبتمبر سنة ١٩٥١ ، نشرت (مجلة الاخبار الامرية : لسان حال البهائية) نص حديث لرئيس البهائيين مع الوزير الاسرائيلى لأمور الاديان ، جاء فيـه :

[وقد كتب حضرة عبد البهاء قبل أكثر من خمسين سنة ، أنه فى النهاية ستكون فلسطين موطنا لليهود ٠ وهذا التنبؤ طبع فى حينه وانتشر]

أتابع قراءة الوثائق . فأرى الوثاق مشدودا بين البهائية وهذه الدولة الطارئة التى تنبأوا بقيامها ٠ فمن سنة ١٩٥٠ أخذت مجلتهم توالى قراءهـا

بجديد أخبارها السارة مع بنى اسرائيل ، من ذلك مثــلا ، ما نشرته المجلة فى العدد الخامس لسنة ١٩٥١ بعنوان (أمر يستحق الانتباه) ونصه :

[خبر انعقاد الجمعية البهــائية العــالمية ، نشر فى جميع الصــحف الاسرائيلية بمختلف اللغــات • وأذاعتــه الاذاعة من تل أبيب لعدة مرات ، مع تقديم التهانى الى البهائيين لمناســبة أعيــاد نيروز ورضوان • وقــد عبر ممثلو البهائية العالمية عنـد اجتماعهم بالرئيس بن جوريون ، عن امتنان الجامعة البهــائية للمعاملات الودية التى تقدمها الحكومة الاسرائيلية مع البهائيين وقدموا كتاب تقدير وامتنان لما تبذله الحكومة الاسرائيلية مـن عناية وتفاهم فى حل قضايا البهائيين ، مع تمنيات ممثليهم بتقدم وازدهار اسرائيل]

وفى العــدد الرابع من سنة ١٩٥٢ :

[أمر الى جميع المحافل البهائية فى العــالم ، لتؤسس كل منهــا فرعا لها فى اسرائيل ، طبقــا لخطة المحفل الاكبر للسنوات العشر من قيــام المملكة الاسرائيلية فى الاراضى المقــدسة ، وقــد أعلنها حضرة عبد البهــاء فى خطــابه بالمؤتمر الرابع للدعاية ، الذى انعقد فى نيو دلهى . قال : اننا ندعو المجتمع البهائى بجميع طبقاته أن يبادروا فى العشر سنوات من قيام دولة بنى اسرائيل ، الى تأسيس فروع فى اسرائيل للمحافل البهائية الايرانيةوالعراقية والامريكية والاسترالية]

وفى العدد العاشر من السنة نفسهــا ، نشرت مجلتهم بعنوان (بشــارة عظمى) :

[لقد اعترفت الحكومة الاسرائيلية بفرع المحفل البهــائى الايرانى فى اسرائيل • وتم بالفعل تسجيله وأصبحت له شخصية حقوقية • وقد قال الهيكل المبارك : ان لهذا الامر اهمية كبــرى ،

فلأول مرة فى تاريخ هذه العقيدة ، يسجل فرع لها فى بلد يعترف به رسميا ، مع أن المحفل فى مؤسسته المركزية بايران ، لم يعترف به ولم يسجل وليست له شخصية حقوقية]

وفى شـــهر أغسطس من سنة ١٩٦٤ ، قـام رئيس اسرائيـل بالزيارة التقليدية للمركز البهائى فى حيفـــا الذى نشر هذا البـلاغ ـ أو الامر ـ عن الزيارة ، فى مجلة الاخبار الامرية :

[زار رئيس الجمهورية الاسرائيلية تصحبه حضرة عقيلته ورئيس بلدية حيفـا وعقيلته وجمع كبير من المسئولين الاسرائيليين ·· المركز العام البهائى بصورة رسمية · وقـدم حضرة الرئيس دعواته وتحياته لجميع البهائيين فى العالم · وبعد استلامه هدية الذات المباركة . أرسل رسالة يعبر فيهـا عن عواطف الصـداقة والتقدير التى يكنها للجامعة البهائية]

●●●

وقدمت « روحية ماكسويل : زوجة شوقى أفنـدى وخليفته » تفسيرها لحلف الشيطان بين البهـائية واسرائيل ، فكتبت فى العـدد العـاشر لسـنة ١٩٦١ ، من مجلتهم :

[·· فان كان من المقرر لنا الاختيار ، فمن الجدير أن يكون هذا الدين الجديد ، فى أحدث دولة جديدة ، وفيها يترعرع · وفى الـواقع يجب أن أقول : ان مستقبلنا ودولة اسرائيل ، كحلقـات السلاسل متصل بعضها ببعض]

●●●

أطلت الوقوف عند قصة البهائية مستخلصة من وثائق حلف الشيطان بينها وبين بنى اسرائيل ، لاكتفى بها شاهدا على الاسرائيليات اذ تشق لليهود نفقا يمتد فى أعماق الشرق الاسلامى سربا من فارس الى فلسطين ٠

وفلسطين وقتذاك فى صميم الوطن العربى آهلة بأبنائها العرب ٠ وحلم بنى اسرائيـــل لا يكتفى بها دون بقيـــة مملكتهم من النيل الى الفـرات ، فمن اى سبيل يتحقق الحلم ، والمنطقة عامرة من أقدم عصور التاريخ بالملايين من أهلها العرب الذين جمعهم الاسلام منذ ثلاثة عشر قرنا ، أمة واحدة ؟

فلنتابع مسار الغزو الفكرى بالاحداث الى ذروتها الفاجعة فى الاجتياح الاسرائيلى لوطننا سنة ١٩٦٧ ٠٠

اليهود كانوا وراء ارساليات التبشير التى فتح لها الاستعمار الصليبى ثغور بلادنا من القرن الماضى . لم تتجه ـ بداهة ـ الى تنصير يهودى ، وانما « جهزها المستعمرون لتنصير المسلمين » ·

وكانوا وراء تيارات الالحاد الذى ألقت اليهودية العالمية بكل ثقلها فى معركته مع الاديان ، ومازالوا به حتى جعلوه عقيدة تستهوى ملايين العصريين الغافلين من نصارى ومسلمين ، ولا تفتن يهوديا عن يهوديته ، الا أن يتعوذ بالماركسية فلاسفة الصهيونية ودعاتها المبشرون فينا بنغمة المادية وعبث العدمية . واليقظة من (أفيون الشعوب) · وتظاهر اليهود فى روسيا باعتناق الشيوعية نفاقا وتقية ، فى انتظار قيام مملكة بنى اسرائيل ليخلعوا قناع شيوعيتهم المزيفة ، ويصروا على الهجرة الى أرض الميعاد ، بكل ما حصلوا من علم وخبرة . وما اطلعوا عليه من أسرار القوم الذين خالطوهم عمرا · ويضغط أولياؤهم الامريكيون على الاتحاد السوفيتي ليفتح أبواب الهجرة الى اسرائيل بغير قيد أو شرط ، لكل اليهود من مستوطنى روسيا ·

بل كانوا كذلك وراء ما لقى الاسلام من بنيه المتفرنجين الذين حملوا الى صميم وجودنا سموم المستشرقين اليهود ، والذين خلبوا الباب العامة ببدع من تأويلات عصرية للقرآن مشحونة بالاسرائيليات ، تزين للناس أن يفهموا دينهم بتأويل كهان هذا الزمان ···

وكل الطرق توصل الى تل أبيب ···

ما أن تم تمهيد التربة الاسلامية بالغزو الفكرى الاستعمارى الذى فتن من فتن من أبناء الجيل ، حتى كانت بضاعة الاسرائيليات تتحرك محومة حول الموقع الدينى الذى ظل الطريق اليه ، الى ماض قريب ، مسدودا أو يكاد ·

لقد استهوتهم البضاعة بمظهرها الخلاب ، وغرهم منها تعلق هؤلاء الفرنجة الكبار بتراثنا الذى لا نكاد نعرف له قيمة ، ونفاذهم العجيب الى اخفى أسراره ، واستيعابهم لما يغيب عن أهله من مصادره ومراجعه ، ومن تفسيره ومنطقه ٠

وبحسن نية فيما نفترض ، أراد المفتونون بهذه البضاعة القيمة التى لها فى المغرب المتحضر مثل تلك المكانة ، اخصاب وجودنا الفكرى بها ، فكانوا هم الذين حملوها الينا وروجوها فينا وزكوها لدينا ، ترجمة ونقلا واقتباسا ، ومنوا على جامعتنا الحديثة باستدعاء أساتذة من يهود المستشرقين فمكنوا لهم من اقتحام أعز معاقلنا الفكرية بالجامعة ٠ وسبقت الاشارة الى « أبى ذؤيب اسرائيل ولفنسون ، ويوسف شاخت ، وبول كراوس » ٠٠ ممن درسوا لجيلى من طلاب الجامعة المصرية ! السامية والعبرية وفقه اللغة وأدبها المقارن وتاريخ اليهود فى جزيرة العرب ٠ وأخرجت كتبهم الى الناس ، من دور نشر كبيرة ، حاملة اسم الجامعة المصرية حين كانت اليها رحلة طلاب الوطن العربى ، ومقدمة بتزكية عالية ، من مشهورى الاساتذة المصريين ٠٠٠

●●●

وظل الخطر رغم ذلك ، محصورا فى نطاق ضيق ، من حيث تصدى الوجدان العام ، بالهام البصيرة وحدس الدفاع عن الذات ، لصد هذه الموجة، وأخذت الامة من كل ما يكتبه الاجانب فى الاسلام والعربية ، وما يترجم اليها من محاضراتهم ومؤلفاتهم ، موقف الحذر والشك ، وانتهت الى الاتهام والرفض ٠

واذن فلينسحب الاجانب من الميدان ، وليدخله المفتونون من مدعى المعصرية ، يقولون فى الاسلام ما شاءوا ، دون أن تستريب أمتهم فيهم أو تأخذ منهم موقف الحذر ، فضلا عن موقف الاتهام ٠

والذى حدث فى المجال اللغوى والثقافى ، حين ترك الاستعمار فى

الشعوب التى سرق ألسنتها من يدافعون من بينها عن لغته وثقافته ، وترك فى الشعوب التى شق عليه قهر عربيتها ، دعاة من مثقفيها الى نبذ هذه اللغـة البـدوية العقيم المسئولة ، لا عن تخلفنـا العلمى والحضارى وأمراضنـا الاجتمـاعية فحسب ، بل مسئولة كذلك عن اسـتعبادنا للسادة المسـتعمرين المتحضرين اذ [أن سيادة البريطانيين على الهنـود مثلا ، أو المتمـدنين على المتوحشين ، هى الى حد ما سيادة لغوية] بنص عبارة الكاتب الصـحافى « سلامة موسى » (١) ٠

أقول : الذى حدث فى المجال الثقافى واللغوى ، يمكن أن يحدث مثـله فى الموقع الدينى : فيكون منا من يقدمون مقولات بنى اسرائيل الى الامة ، فى قناع التجديد وزى العصرية ٠٠٠

●●●

وانتقلت شحنة الاسرائيليات من كتب المستشرقين المعزولة عن الجماهير والمتهمة من الامة ، الى كتب عصرية بأقـلام مسلمين شرقيين ، وأخرجت الى الناس فى عدة طبعات روجت فى الجماهير باسم العلم والايمان العصرى !

والاسرائيليات فى كتب التفسير من تراث السلف ، ليست سوىاضافات هامشية كما سبق أن بينا ٠ ولم يحـدث قط أن أعطاها مفسر صفة التوثيق ، فذكر نصا مقابلا لها من كتب بنى اسرائيل ٠

وتلاميذ المدرسة الجديدة ، من حملة الاسرائيليات المسلمين ، لا عـلم لهم بتراثنا فى أوراقه الصفراء ، ويعييهم الاتصال المباشر بكتب التفسير ، اذ لم تصح لهم أدنى دراية بعلوم العربية والاسلام ، فليسوا بحيث يقابلون عليها ما يأخذونه من الغرب من اسرائيليات حركهـا يهود المستشرقين من هوامش

---

(١) فى كتابه (البلاغة العصرية واللغة العربية) والقضـية معروضة بتفصيل فى كتابى (لغتنا والحياة) ط معهد الدراسات العربية ، ودار المعارف بالقـاهرة ٠

كتب التراث البعيـدة عن التـداول ، الى موضعها الجديد موثقـة بمصـادر اسرائيلية علىوجه التدليس الذى يغيب عنغير ذوى الفقه بالنصوص المقارنة٠

وفى حركة النقـل لبضاعة الاسرائيليات من هذا الموضع الجـديد لدى علماء اليهود الى الشرق الاسلامى بأيدى بنيه ، وليسوا مظنة اتهام ، اختلف المجال بحكم اختلاف أوضاع المجتمعات فى أقطار العالم الاسلامى :

فى الشرق الآسيوى ، المجال لترجمة القرآن ، حيث ملايين المسلمين من غير العرب يقرأون كتاب دينهم مترجما الى الانجليزية التى مكن لها الاستعمار البريطانى من منطقة نفوذ لغوى غالب ٠

وأحدث ما قدم اليهم فيما أعلم ، ترجمة عنوانها :
«The student's Quran»

أى : قرآن الطالب ، للدكتور « هاشم أمير على » الذى عاد من الولايات المتحـدة الامريكية بدرجة الدكتوراد فى الاسـلاميات ، فشـغل منصب عميد كلية الدراسات العليا فى جامعة الملة الاسلامية بنيو دلهى ٠

وظهرت ترجمته فى سنة ١٩٦١ مطبوعة فى وقت واحد ، فى فروع دار النشر الآسـيوية (Asia Publishing House) بالعواصم الـكبرى لامريكا وأوروبا وآسيا : نيويورك ولندن ونيو دلهى وكلكتا ٠٠ ووزعت على أوسع نطاق . وقدمت نسخ منها هدايا الى أعضاء مؤتمر المستشرقين الدولى الذى انعقد فى نيو دلهى ـ يناير ١٩٦٥ ـ وكنت منهم ، وكذلك كان الدكتـور المترجم عضوا زميلا فى شعبة الدراسات الاسلامية بالمؤتمر ٠

وقد عجبت حين كشف لقاؤنا عن جهله التام باللغة العربية ، الى درجة العجز عن فهمكلمة واحدة منحديثى معه ، فسألنى أن أتحدث معه بالانجليزية٠ ولما سألته بها : كيف ترجم القرآن وهو لا يعرف حرفا من لغته على الاطلاق ؟ كان رده السريع حاضرا :

ـ وهل جاء القرآن للعرب وحدهم ؟

قلت : كلا ، بل نزل للمسلمين والعالمين كافة ، لكنه نزل بلسان العرب ، فأنى لمن يجهل هذا اللسان أن يفهم الكتاب العربى المبين ، فضلا عن أن يتصدى لترجمتـه ؟

وفهمت منه ـ والحديث يدور بيننا بالانجليزية بطبيعة الحال ـ أنه وضع بين يديه التـراجم الانجليزية للقرآن ، ووضع معهـا أسفار العهد القـديم والجديد ، مرجعا ومصدرا !

وشق عليه ، بحكم انتمائه الى مدرسته الامريكية ، أن يفهم أن القرآن وان صدق برسالات الدين قبله ، متفرد بنصه المتميز ومنهاجه الخاص وشريعته الاسلامية ، فليس من الحق أن نفسره بما فى الكتب الأولى التى لم تصل الينا فى نصوصها الموثقة كما أبلغها رسلها ٠ وقد استصفى القرآن منها ما أراد للبشرية أن تقرأه فى ختام رسالات الدين ، وصرفها عما لم يتعلق بذكره ٠

●●●

أكتفى هنا بترجمة « الدكتور هاشم أمير على » لكلمـة الوحى الأولى « اقرأ » شاهدا على سيطرة الاسرائيليات على عقليته ، ونموذجا من طريقته فى التفسير ، ومثالا مما يقدم الى الشعوب الاسلامية غير العربية ، من جديد الفهم العصرى للقرآن ٠

بدأ فترجم كلمة اقرأ بـ : Cry أى اصرخ وصح ! ثم ذكر أن الكلمة فى الانجليزية يمكن أن تعطى مع الصياح دلالات : الدعاء ، والاعلان ، والاشهار ، والاعلام ، والتعليم ، والتبشير ٠

وقد يبدو غريبا أن المفسر وهو يسوق هذا الحشد من التأويلات فى ترجمة الكلمة القرآنية « اقرأ » لم يجد موضعا بينها للكلمة الانجليزية : Read وهى وحدها التى يمكن أن تعطى دلالة القراءة !

لكن هذه الغرابة تزول حين نمضى معه فنـراه يربط آية الوحى الأولى « بفقرة أولى فى الاصحاح ٥٨ من سفر اشعياء » ٠

ولم ينقل نص الفقرة المشار اليها من هذا الاصحاح ، وكأنه خشى ألا يجد القراء أدنى مشابهة بين الآية القرآنية : « اقرأ باسم ربك الذى خلق » ٠

وعبارة الاصحاح ٥٨ من سفر اشعياء :

« ناد بصوت عال ٠ ارفع صوتك كبوق ٠ وأخبر شعبى بتعديهم ، وبيت يعقوب بخطاياهم » ٠

فماذا بعد هذا الشد للآية القرآنية الى (سفر اشعياء) مع حجب نصه عن القراء لكيلا يكتشفوا زور التوثيق بتدليس موهم ؟

بعده أن الدكتور المترجم استطرد مفسرا ، يتحدث عما :

[كان يشغل محمدا ـ قبل المبعث ـ من تفكير فى حال قومه ٠ وما كان يحضر فى ذهنه دائما من قصص قدامى الرسل للعرب واليهود والمسيحيين ، وكيف جذبوا أتباعهم من الضلال ٠ فهل يقدر له أن يفعل مثل ذلك ، ويسلك فى صف أولئك الرسل ؟]

الكلام بنصه ، قد قاله المستشرق اليهودى « جولدتسيهر » فى مبحثه (محمد والاسلام) وقد نقلناه آنفا من كتابه (العقيدة والشريعة فى الاسلام) وشايعه عليه نفر من المستشرقين المتهمين فيما يكتبون عن الاسلام ٠ فليكن أحد الدكاترة المسلمين هو الذى يبثه فى عقول مئات الملايين من مسلمى الهند والشرق الآسيوى ، وهم معزولون ـ بحكم السيادة اللغوية للانجليزية على المجال الثقافى هناك قراءة وكتابة وتعليما ـ عما هو ثابت فى أصول المصادر الاسلامية العربية ، من نفى فرية تطلع « محمد بن عبد الله » الى النبوة قبل مبعثه ، ودحض افتراء تعلقه بأن يفعل مثل ما فعل قدامى الرسل ، وقد عراه ، صلى الله عليهوسلم ، من فجاءةالوحى ما توارت به الاخبار الموثقة فىالمصادر المعتمدة لتاريخ عصر المبعث ٠

معزولون كذلك عن القرآن فى نصه العربى المبين ، ينفى نفيا صريحا قاطعا أن يكون النبى الأمى قد عرف من قصص قدامى الرسل للعرب أو اليهود

أو المسيحيين _ فضلا عن أن يتعلق بأن يفعل مثلهم _ الا ما نزل به الوحى بعد المبعث ...

بصريح الآيات المحكمات ، خطابا للمصطفى عليه الصلاة والسلام :

« وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون » (العنكبوت : ٤٨)

« وما كنت بجانب الغربى اذ قضينا الى موسى الامر وما كنت من الشاهدين ❋ ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر ، وما كنت ثاويا فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين ❋ وما كنت بجانب الطور اذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون » (القصص ٤٤ : ٤٦)

« ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك ، وما كنت لديهم اذ يلقون اقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم اذ يختصمون » (آل عمران ٤٤)

ويأتى الدكتور « هاشم أمير على » فينقل حرفيا الى ملايين المسلمين من قومه ، ما زعمه اليهودى « جولدتسيهر » عن طول تطلع محمد الى النبوة قبل مبعثه ، وطول ما استحضره فى ذهنه دائما من قصص قدامى الرسل ، وتعلقه بأن يفعل مثلهم ويسلك فى صف أولئك الرسل !

هل يكفى هذا شاهدا ومثلا على حركة الاسرائيليات من موضعها لدى يهود المستشرقين ، الى ترجمة يقدمها دكتور مسلم ، عميد لكلية الدراسات العليا بجامعة نيو دلهى الاسلامية ، مطبوعة فى العواصم الكبرى لأمريكا وأوروبا والهند ، وموزعة على أوسع نطاق ، ومهداة الى علماء الاسلاميات من شرق وغرب ؟٠

●●●

وهنا فى أقطار الوطن العربى ، حيث يقرأ المسلمون العرب كتاب دينهم فى أصله المحكم الموثق بالمصحف العثمانى الامام ، لا مجال لترجمة القرآن ، وانما المجال لتفسير مبتدع مشحون بالاسرائيليات فى موقعها الجديد ، يقدمه الى المسلمين دكتور مسلم . فى مثل تفسير عصرى للقرآن ، ينشر أول الأمر مقالات أسبوعية فى مجلة (صباح الخير) القاهرية ، موضحة بلوحات فنية لرسام المجلة ، تقدم زجاجات الويسكى وأقداح الشمبانيا الى أهل الجنـــة فى الآخرة ! ثم تجمع مقــالات هذا التفسير فى كتاب (فهم عصرى للقرآن) يطبع فى أكبر عاصمتين لنشر الكتاب العربى : القاهرة وبيروت ، وتدق له طبول الدعاية وأجراس الاعلان فى انفاق سخى البذل رحب النطاق ، بلغ من نفوذها أن تقرر تدريس هــذا التفسير العصرى فى مدارس قطر عربى يرفع شعار الدعوة الاسلامية لشعوب عالم اليوم ٠

ثم يحسب حساب من لا يقرأون الكتاب ، وفيهم جماهير الأميين مــن عامة الشعب ، وفيهم كذلك الشباب الزاهدون فى قراءة الكتب ، وليس عددهم بالقليــل ٠

يحسب حساب هؤلاء وهؤلاء ، فيبث فيهم هذا الفهم العصرى للقرآن ، عن طريق الاذاعة المسموعة والمرئية ، فى برامج دورية ثابتة باسم (الايمــان والعلم) و (دين ودنيا) أو برامج منوعة مبثوثة فى : موائد الرأى ، وندوات الفكر ، ولقاء مع فلان ٠٠٠

اكتفى منه أيضا بتأويله للآيات القرآنيــة فى غيبيات : الوحى ، وخلق آدم ، والجن والملائكة ، والساعة والحياة الآخرة ٠٠

شاهدا على سيطرة الاسرائيليات على عقلية الدكتور المفسر ، ونموذجا من فهمه العصرى للقــرآن ، ومثالا لما يقـــدم الى الامة من بضاعة يهـــوه المستشرقين ، يشدون بها القرآن الى أسفار العهد القديم والجديد ، بتدليس يفوت على غير ذوى الفقه بالنصوص المقارنة ٠

فى الوحى :

نقلنا فيما سبق عرضه من وثائق البهائية والاسرائيليات ، تأويلات أحبار اليهود لأسفار من الكتاب المقدس ، تبشر بمبعث النبى الجديد فى القرن التاسع عشر ، وسعى الحاجات الامريكيات الى جبل الكرمل للحظوة بلقـــاء النبى المرسل ، وسماع الحكمة الالهية الموحى بها اليه ٠

فى سنة ١٩٧٠ ظهرت طبعة القاهرة الاولى ، الجامعة لمقالات التفسير العصرى للقرآن ، بمجلة صباح الخير ، وفيها يقول المفسر العصرى ما نصه :

[ونفهم من القرآن أن جبريل يمكن أن ينزل الى الأرض فى أية صورة ، ويحمـــل الوحى الى أى نبى ، فى أى عصر ، وبأية لغـــة] ١٣٠ (١)

والذى فى القرآن ، من آية الاحزاب المحكمة ، فى محمد عليه الصـــلاة والسلام :

« ولكن رسول الله وخـــاتم النبيين ، وكان الله بكل شىء عليما » ـ ٤٠

●●●

فى خلق آدم ، وخطيئته ، وهبوطه من الجنة :

يفصل سفر التكوين من قصة الخلق ما لم يتعلق القرآن بذكره ٠ وفى الطوائف المسيحية ، من يحملون الاجيال من بنى آدم ، وزر خطيئته الاولى ، ويأخذون أنفسهم بالتكفير عنهـــا ٠

---

(١) الارقام المذيل بها ما ننقله من (فهم عصرى للقرآن) تحدد مواضع الفقرات المنقولة بنصها ، فى صفحات الطبعة الاولى : مؤسسة روز اليوسف ١٩٧٠ ٠

الدكتور المفسر ، ليكون عصريا ، أضاف الى معتقدات لأهل الكتاب ، ما التقطه من « نظرية داروين فى أصل الانواع » وألبسهما معا ثوبا قرآنيا ، فجاء تأويله مرقعا بالغ الشذوذ والاختلال والتخليط ، وفحش الجرأة على العلم والدين ٠ قال :

[ان القرآن يزودنا بما هو أكثر من كل ما قاله العلم ، فيطلعنا على بعض الغيب : على ما حدث فى الملكوت فى الملأ الأعلى ، قبل الخلق الارضى لآدم ، فيروى (؟) لنا مرحلة سابقة لهذا الخلق : « لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين » أن ما حدث من انبثاق آدم من الماء والطين على مراحل تطورية فى الارض ، كان ردة وكان انتكاسا وعقابا لخطيئة سوف نفهم تفاصيلها ٠٠٠ وكان العقاب هو الطرد والاهباط من تلك الجنة الى الارض ، والنزول الى أسفل سافلين ، وهى هاوية التيه المادى : الى طين المستنقعات هذه المرة ، الى مجرد جرثومة فى طين الارض ، الى نقطة بدء أولى من الصفر ٠ وكان على آدم أن يخرج من هذا التيه المادى فى انبثاق متدرج عبر خمسة آلاف مليون سنة كما تقول لنا علوم البيولوجيا ، وعبر مراحل وأطوار بدأت بالخلية الاولى والأميبا ، صعدا الى الاسفنج والرخويات والقشريات ٠٠٠ الخ ٠ فى رحلة قاسية وعبر صراعات دامية ٠٠ انها رحلة أشبه بالخروج من الرحم ، رحم الارض ذاتها ٠٠ « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه » ٠ وأثاب الله آدم على توبته بأن هداه فى رحلته الدامية وأخذ بيده خارجا من رحم الارض ومن طين المستنقعات ، حتى وقف منتصبا على قدميه محاكيا آدم الاول ٠٠٠] ٥٥ ، ٥٧

[ان كلا منا ، نحن ذرية بنى آدم ، قد عاش هاتين المرحلتين] ـ ٥٩

وأعترف مع الدكتور العصرى بأن هذا كله مما لم يقله لنا أى علم فهل هو مما [يرويه القرآن] ؟ وعمن يروى القرآن ؟ يضيف المفسر العصرى الى هذه الداروينية الممسوخة :

[فاذا عدنا الى الشجرة لنسأل ما هى ؟ أهى رمز أم حقيقة ؟ وجدنا أمامنا اختلافا كبيرا ··· وأنا أرى أنها رمز للجنس والموت اللذين تلازما فى قصة البيولوجيا حينما أخذت الكائنات الحية بطريقة التلاقح الجنسى لتتكاثر ، فكتبت على نفسها الموت !!

[ويقال ان شريعة الطهارة وقطع الغلفة الزائدة من العضو التناسلى ، كانت الكفارة التى قضى بها آدم على نفسه بعد الخطيئة ، كمحاولة للخصاء تقززا مما فعل · ثم أصبحت تقليدا دينيا من يومها ···] ـ ٦٢

التلاقح الجنسى للتكاثر وحفظ النوع ، قضاء من الكائنات الحية على نفسها بالموت ؟

« **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ···** » (**النساء : ١**)

« **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ···** » (**الروم : ٢١**)

« **ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية ···** »
(**الرعد : ٣٨**)

« **سبحان الذى خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون** » (**يس : ٣٦**)

والدعاء القرآنى لعباد الرحمن :

« ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنـــا للمتقين اماما ·· »   (الفرقان : ٧٤)

والطهارة كفارة آدم عن خطيئته ، أصبحت تقليدا دينيا الى يومنا هذا ؟! عنـ من ؟

الذى فى القرآن الكريم :

« ألا تزر وازرة وزر أخرى * وأن ليس للانسان الا ما سعى * وأن سعيه سوف يرى *ثم يجزاه الجــزاء الأوفى * وأن الى ربك المنتهى * وأنه هو اضحك وأبكى * وأنه هو أمات وأحيــا * وأنه خلق الزوجين الذكـــر والأنثى * من نطفة اذا تمنى ·· »   (النجم ٣٨ : ٤٦)

« لا يكلف الله نفســا الا وسعها لهــا ما كسبت وعليهــا ما اكتسبت ، ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ·· »   البقرة : ٢٨٦

●●●

وفى غيب الجن والملائكة :

وذلك فى الاسلام من السمعيات الغيبية التى نؤمن بما جاء فى القرآن عنها · والقرآن يصرح بأننا معشر بنى آدم لا نرى الشيطانوقبيله اذ يكيدون لنا من حيث لا نراهم :

« انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم »   الاعراف ٢٧

وهو يأتى الانسان من نفسه الأمارة بالسوء ، كما يأتيه من خبيث ماكر يتسلط عليه ويزين له الضلال : فأما الشيطان الذى هو قرين النفس « وساء قرينا » فلا يكون حديثــه اليهــــا الا وسوسة ونزغا واستهواء · وإذا تجسد

الشيطان فهو فى العقيدة الاسلامية : كل أفاك أثيم ومارد عات وسائر من يضلون الناس بالفتنة والدجل وسحر التمويه والخداع ٠ وهؤلاء هم شياطين الانس ، أولياء الشيطان وقبيله وحزبه ٠

ومن القرن الثانى للهجرة ، قبل نحو ألف ومائتى سنة ، قال الامام الشافعى رضى الله عنه :

ـ « **من زعم أنه يرى الجن شهودا لا اقبل شهادته** » ٠٠ لان الاسلام يشترط فى الشاهد العدالة والضبط ٠ وهذا الذى يزعم أنه يرى الجن ، لا يخرج عن احدى اثنتين : اما أن يكون كاذبا فيما يزعم ، فهو مجرح فى خلقه ٠ واما أن يكون صادقا فى وهمه ، فهو مجرح فى عقله ٠

وقال تعالى فيما أوحى الى رسوله من سورة الجن :

« **عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا** » (١)

صدق الله العظيم

البهائية تأولت ايماننا ، نحن أمة الفرقان ، بغيب الجن والملائكة على أننا نراهم ونخالطهم ونتعامل معهم ، واتخذ بهاء الله هذا التأويل ، من ذرائع نسخه للقرآن بالكتاب الأقدس البهائى ٠٠٠

الدكتور المفسر العصرى يقول :

[واذا كانت حجة صاحب البهائية فى الشياطين ، فلماذا يلزم البشرية بحجته وفى هذه البشرية من رأى الجن والملائكة والشياطين وعلم الغيب شهودا ؟ هل الأعمى هو الذى يلزم المبصر ؟ أم أن حجة المبصر الواحد تقوم فتلزم ملايين العميان الذين لا يرون الشمس اذا راها مبصر واحد ؟ ١٢٢

(١) معها آيات : البقرة ٣٣ ، والانعام ٥٠ ، والاعراف ١٨٨ ، وهود ٣١، والنمل ٦٥

[ووعد الانجيل : « اطلبوا تجـدوا • دقوا على البـــاب يفتح لكم » على أن يكون دق الباب بجماع القلب والهمة وانقطاع البال وخلوص النية ، وليس مجرد شقشقة لسان بدعاء تقليدى ، وحينئذ يتفضل الله عليك كما يتفضل على أحبابه وأوليائه فيفتـح بصيرتك لترى الملائكة **شهودا** وترى **الغيب حضورا** ، وتســمع ما لا أذن سمعت] ١١٩

وتابع المفسر العصرى تقديم ما كشف له وحده من هذا الغيب ، فتأول قوله تعالى : « **ومن يعش عن ذكـر الرحمن نقيض له شـيطانا فهو له قرين** »

[اشارة بأن حكاية القرين من الجن هى أيضا أمر غيبى لن يفهم الآن ولكن سوف يتضح فى ميقاته وزمانه ••• ثم **يروى** لنا الله فى القرآن أن الانسان لا يترك لقرين الشر من الجن وانمـــا له قرين آخر من الملائكة يلازمه ويلهمه بالخير • ويظهر هـــذا القرين الملائكى ليشهد يوم القيــامة ويخبر عن صاحبه : « وقال قرينه هذا ما لدى عتيد »]

مرة أخرى [الله يروى لنا فى **القرآن**] فعمن يروى جل جلاله ؟ وماذا يرويه لنا فى القرآن عن هذا القرين الملائكى الذى يظهر يوم القيامة ليشـــهد لصاحبه : « وقال قرينه هذا ما لدى عتيد » ؟

الذى فى القرآن ، من سياق الآية التى استشهد بها المفسر العالم بالغيب لشهادة القرين الملائكى :

« لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد * وقال قرينه هذا ما لدى عتيد * ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد * مناع للخير معتد مريب * الذى جعل مع الله الها آخر فألقياه فى العذاب الشديد * قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد * قال لا تختصموا لدى وقـد قدمت اليـكم

بالوعيد * ما يبدل القول لدى وما انا بظلام للعبيد * يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد » ق ٢٢ : ٣٠

فأى غيب كشف للمفسر فأراه هذا القرين ، ملائكيا يلهم صاحبه الخير ويشهد له يوم القيامة ؟

ومن غيب الملائكة ، كشف له كذلك عن حملة العرش ـ يوم القيامة ـ فاقتحم غيبها بأسئلة لا يقرها علم ولا دين ، يلوك فيها ألفاظا من المصطلحات العلمية الحديثة التى لا تتعلق ، اطلاقا ، بغيبيات اليوم الآخر · قال ما نصه :

[ثم هناك ملائكة للعرش : « ويحمل عرش ربك يومئذ ثمانية » كيف تحمل ثمانية من الملائكة عرش الله ؟ أم هى ثمانية صفوف كل صف فيه ما لا نهاية له من الملائكة ؟ أم هى ثمانية قوانين فيزيقية وميتافيزيقية ؟ ثم ما هو العرش ؟ أهو رمز ؟ وما هو الكرسى ؟ انه يوصف فى آية الكرسى بأنه وسع السماوات والارض ، فما بال العرش بأسره ؟ وكيف تحمله مخلوقات ؟ أم هى مخلوقات غير ما نعرف على الاطلاق ، ولعلها قوى كهرمغنطيسية هائلة ؟ ألا تمسك قوانين الجاذبية بالشمس والنجوم فى فضاء الكون ؟] ١٢٨

بعد هذه الشحنة من الالفاظ العصرية فى الاسئلة التى أثارها ، من على الامة بما كشف له من غيبها ، فنشر فى فتاويه بالمجلة ردا على بريد قرائه :

[ان العرش الالهى هو قلب المؤمن · وان الكرسى هو العقل · أما اللوح المحفوظ فهو جسد الانسان يكتب فيه الله أو ملائكته أقدارنا على الجينات الوراثية]

وقدم معه تأويلا للآية القرآنية « يمحو الله ما يشاء ويثبت » :

[وهو كلام محير يفهم من ظاهره أن الله مثلنا يكتب ويشطب

ويراجع النفس ٠٠ وهو غير صحيح ٠ والتفسير **الأصح** أن الآية دلالة على سعة المغفرة والرحمة بدرجة تصل الى **اللامعقول** ، الى محو القدر المقدور] ـ ١٣٧

●●●

وفى غيب القيـــامة :

آية الدخان : « **فارتقب يوم تأتى السـماء بدخان مبين * يغشى الناس هذا عذاب أليم** » ، تأولها المفسر العصرى ، لأمة القرآن ، بقوله :

انك [تجدها فى رؤيا يوحنا اللاهوتى : « ففتح بئر الهاوية فصعد دخان من البئر كدخان أتون عظيم ٠ فأظلمت الشمس والجو من دخان البئر وهـذا الدخان لا يقتل الناس وانما يعذبهم خمسة أشـهر ٠ وفى تلك الايام سيطلب الناس الموت ولا يجدونه ويرغبون أن يموتوا فيهرب الموت منهم » انها ظاهرة طبيعية يقول عنها القرآن كما قال يوحنا اللاهوتى] ١٤٢

أدع لعلماء الطبيعة هذه الظاهرة **الطبيعية** فى رؤيا يوحنا اللاهوتى ، وأسأل : أين منها فى القرآن دخان البئر وعـذاب الشـــهور الخمسة وطلب الناس الموت وهو يفر منهم ؟ أين من « تأتى السماء بدخان » فتح بئر الهاوية ؟

ويتابع المفسر العصرى تأويله لآيات القيامة فى القرآن :

[ونجد فى رؤيا يوحنا اللاهوتى صورة **مشابهة** للقيامة ـ فى آياتها القرآنية ـ يقول : « **ونظرت لما فتح الختم السادس واذا زلزلة عظيمة حدثت والشمس صارت سوداء كمسح من شـــعر والقمر صار كالدم** ٠٠٠] ١٤٧

اما قوله تعالى : « **يوم تبدل الارض غيـر الارض والسموات** » فيؤوله الدكتور المفسر بما نصه :

[وفى ذلك يقول يوحنا اللاهوتى : ثم رأيت سماء جديدة لان السماء الاولى والارض مضتا والبحر لا يوجد فيما بعد] ١٥٠

ثم يفتى المسلمين فى الحياة الآخرة جملة ، فيؤكد رجما بالغيب أن :

[الله رحيم بعباده وكل ما أنذر به من عذاب جهنم ليس الا نوعا من التخويف ، كما تخوف ابنك الطفل بأنه اذا لم ينظف أسنانه بالفرشاة كل يوم فان الفيران سوف تأكلها ٠ وبطبيعة الحال لن تأكل الفيران أسنانه !]

[وان كل ما جاء ـ فى القرآن ـ عن الجنة والجحيم ، ما هو الا ألوان من ضرب المثال وألوان من الرمز ٠ وفى **العهد القديم** يصف أشعياء يوم الرضوان قائلا : « يضع رب الجنود لجميع الشعوب فى هذا الجبل (؟) وليمة سمائن ووليمة خمر ويمسح السيد الرب الدموع من كل الوجوه » وفى ترانيم القديس افرايم : « ورأيت مساكن الصالحين رأيتهم تقطر منهم العطور وتزينهم ضفائر الفاكهة وكل من عف عن الشهوات تلقته الحسان بوجه طهور »] ٦٧

●●●

ومتى تقوم الســـاعة ؟

ذلك أيضا مما كشف للمفسر العصرى من [الغيب المطلسم] فضرب للناس موعدا مع الساعة رجما بالغيب ، فى آخر القرن العشرين ، على وجه التخمين بتأويل آيات قرآنية لا تتعلق بالساعة من قريب أو بعيد ، بل لا تتعلق بالآخرة على وجه الاطلاق ، وانما هى مما يقصه القرآن من خبر الغابرين ، ردا على سؤال أحبار اليهود فى جدلهم مع المصطفى عليه الصلاة والسلام قصدا الى اعناته بسؤاله عما لم يكن له به علم ٠ ونزلت الآيات من سورة الكهف :

« ويسالونك عن ذى القرنين قل ساتلو عليكم منه ذكرا ✻ انا مكنا له فى الارض وآتيناه من كل شىء سببا » ٨٤

« حتى اذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لايكادون يفقهون قولا ✻ قالوا يا ذا القرنين ان ياجوج ومأجوج مفسدون فى الارض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا ✻ قال ما مكنى فيه ربى خير فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما ✻ آتونى زبر الحديد حتى اذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى اذا جعله نارا قال آتونى افرغ عليه قطرا ✻ فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا » ٩٣ : ٩٧

هذه الآيات البينات فى خبر الماضين بصريح لفظها وسياقها ، هى التى شد الدكتور المفسر وثاقها فى جرأة فاحشة الى رؤيا ليوحنا اللاهوتى • ولكى يكون عصريا ، أضاف اليها حوارا بين زعيم الصين وقائد معركة العلمين مدخلا الى غيب الساعة ! فجاءت الخلطة لاهوتية ماو تسى تونجية مونتجومرية قرآنية ، شبيهة بخلطة الداروينية اللاهوتية القرآنية فى خلق آدم وهبوطه الى الارض ليخرج من رحمها مجرد جرثومة تتطور عبر ملايين سنين ، من أميبا الى اسفنج ورخويات وقشريات وزواحف ••• الخ الخ •

الحوار بين الرجلين ، كان عن المخاوف من غزو الصين للعالم بعد أن يصبح سكانها ألف مليون نسمة •

أخذه المفسر العصرى فى سياق علامات الساعة ، فقال بلغة مطعمة بألفاظ من محدثات العصر :

[ثم تأتى العلامة الاخيرة ـ للساعة ـ وهى يأجوج ومأجوج ! وهى قصة غامضة ـ فى القرآن ـ كلها رموز • البعض يقول ان يأجوج ومأجوج هم نسل يافث بن نوح وأنهم هم الجنس الأصفر ، الصين وما فى دربها ، عاشوا فى آجال وأحقاب من

الجهالة والشعوب المتقدمة من حولهم تبنى أسوارا من العلم والتصنيع ٠

[وذو القرنين ، وصهر الحديد والنحاس ، كلها رموز للعلم والصناعة التى كانت تحجزهم وراء حاجز الجهل والتخلف وتقيم حولهم سدا ٠ حتى اذا جاء اليوم الموعود ونفضوا عن أنفسهم هذا التخلف وأخذوا بأسباب الصناعة وصنعوا الحديد والصلب والقنبلة الهيدروجينية وتكاثروا الى آلاف الملايين وهدموا السد ، ولم يكن السد الا رمز الجهل الذى يعزلهم عن العالم ، سارعوا فى الارض ونزلوا « من كل حدب ينسلون » وكانت الحرب التى تضع ختام الحياة ٠

[ومع هذا فانا لو فتحنا الاصحاح العشرين من سفر الرؤيا وقرأنا ما يقوله يوحنا اللاهوتى فانا نراه يقول نفس المعانى ويشير نفس الاشارات ـ التى بآيات الكهف ـ

« متى تمت الالف سنة يحل الشيطان من سجنه ويخرج ليضل الامم الذين فى أربع زوايا الارض ٠٠ يأجوج ومأجوج ليجمعهم للحرب وعددهم مثل رمل البحر ٠ » ما هذه الامة التى عددها كرمل البحر والتى سوف تحتشد لتحارب العالم عندما تتم السنة الالف ؟ ولعله ـ فى سفر الرؤيا ـ يقصد الالف الثانية ميلادية ، وباق عليها الآن أقل من ثلاثين سنة] ! ١٤٧

هى اذن لعبة الحروفيين ، يمارسها المفسر العصرى للقرآن على طريقة اليهود فى النبؤة البهائية ، حين [التمسوا من الرؤى ما ينبىء بمبعث الباب : فالثلاثمائة والالفان من الايام ، أى من السنين التى بعد انتهائها يتبرأ القدس اى يتطهر المعبد (لصحاح ١٤/٨ من سفر دانيال) تنتهى تبعا لتقديراتهم فى سنة ١٨٤٤ ميلادية ، وهى السنة التى ظهر فيها ميرزا على محمد وأوحى اليه أنه الباب الذى حل فيه العقل الالهى الكلى]

فماذا نقول لمن جعل الالف سنة فى سفر الرؤيا ، يقصد بها الالف الثانية ميلادية ، وباق عليها أقل من ثلاثين سنة لتقوم الساعة ؟

ماذا نقول الا أن نتلو من القرآن الكريم ، هذه الآيات المحكمات خطـابا لنبينا عليه الصلاة والسلام :

« يسألونك عن الساعة أيان مرساها * فيم أنت من ذكراها * الى ربك منتهاها * انما أنت منذر من يخشـــاها * كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا الا عشية أو ضحاها » (النازعات ٤٢ : ٤٦)

« ويسألونك عن الساعة أيان مرساها قل انما علمهـا عند ربى لا يجليها لوقتها الا هو ، ثقلت فى السموات والارض لا تأتيكم الا بغتة ، يسألونك كأنك حفى عنها قل انما علمها عنـد الله .. » (الاعراف : ١٨٧)

على هذا النحو ، كانت المرحلة الثالثة للتسلل بالاسرائيليات الى صميم الموقع الدينى ، منقولة بأيدى نفر منا ، من موضعها الذى حركها اليه يهـــود المستشرقين اذ ردوها الى مصادر من أسفارهم ، بعد أن كانت حواشى مرسلة على هوامش كتب السلف البعيدة عن التداول العام ٠

ويؤتى المسلمون من جهة ايمانهم بأن القرآن مصدق لما سبقه من رسالات الـدين ٠

ويفوتهم ما وراءها من مقولة اسرائيلية فاحشة [القرآن ، والاســلام كله بضاعة يهودية ٠ ولم يأت نبى الاسلام بجديد لم تسبقه اليه أسفارهم التى وعاها مما لقنه الراهب بحيرا من علم التوراة فى رحلة صباه الى الشــام ، وما تعلمه من الاساتذة أحبار اليهود فى دار الهجرة] !

وقلت وأقول : اذا تجاوزنا عن شذوذ منطق العصرية والعلمية فى تعلق نفر من المحدثين باسرائيليات من تراث اليهود قبل أربعين قرنا وأكثر ٠

فانى أطيل النظر فى ذرائعها الخبيثة ، اذ يراد لأمتنا باسم الايمان أن تفهم القرآن ببدع من تأويل كهان هذا الزمان ، ويراد لها باسم العلم والعصرية أن تتزود لعصر لونا وساليوت وأبولو ومارينر وسكاى لاب ، بالرؤى والترانيم عن غيب الآخرة ، وأن يخلو بال أبنائها من هموم الحياة وشواغل المعـــركة وتحديات المرحلة ، فيدقوا البـــاب ليتفضل الله عليهم برؤية الملائكة والجن شهودا ، ويكشف لهم عن [الغيب المطلسم] فيتوقعوا قيـام الساعة بعـــد [أقل من ثلاثين سنة] بتأويل رؤيا يوحنا اللاهوتى ، على لعبة الحروفيين فى فهم عصرى للقرآن ٠٠٠

وأن يرسخ فى وجدانهم ، باسم الايمان والعلم معا ، هذا الاصرار على شد القرآن الى منابع اسرائيلية : [نفس المعانى ، نفس الالفاظ] فى الازمة الحرجة لمحنتنا بالاجتياح الصهيونى لوطننا ، وعربدة اسرائيل بوطأة قرصان ووقاحة فاجر ، فى حمانا المنتهك المستباح ٠٠٠

لا ريب فى أن حركة الاسرائيليات الى موقعها الجديد فى صميم وجودنا الدينى ، تعتمد أساسا على حساسية الامة الاسلامية تجاه الاديان السماوية التى يفرض علينا ديننا احترامها والتصديق بها ، ويحظر علينا التعصب الذى يفرق بين أحد من الرسل عليهم السلام •

فكانت خدعة الفصل بين اليهودية واسرائيل والصهيونية ، وما هى فى الحقيقة والواقع ، سوى أقنعة لوجه واحد !

وبلغ من سيطرتهم على الفكر المعاصر : الدينى والسياسى ، أن أوهمونا أن اليهودية هى الموسوية ، دين اسرائيل ، أما الصهيونية فحركة طارئة محدثة ، محصورة فى غلاة السياسيين من يهود العصر الحديث فحسب •

وبهذا التزييف المزدوج ، للموسوية دينا واليهودية عنصرا ، ابتلونا بعقدة الخوف من التورط فى اثم عداء الدين الموسوى ، والوقوع فى خطيئته العنصرية المحظورة فى عقيدتنا •

وبهذا التسامح نريد لعالم اليوم أن يؤازرنا فيقنع اسرائيل بدولة لفلسطين غير عنصرية ، فى ظل تعايش سلمى مع أهلها العرب ، آمنة من تعصبهم الدينى أو العنصرى ضد بنى اسرائيل ، وانما يتعصبون ضد الصهيونية فحسب !

فمتى كانت الصهيونية منفصلة عن اسرائيل واليهود ؟

وكيف جازت علينا خدعة الخلط بين اليهودية والموسوية ؟

اليهودية أسبق فى الوجود التاريخى من الديانة الموسوية ، ومحنة البشرية بهم أقدم من مولد موسى عليه السلام بقرون ذات عدد • والذين اتبعوه منهم ما لبثوا أن زاغوا وكفروا به وبربه ، بمجرد أن التقطوا أنفاسهم من وطأة فرعون • اضلهم السامرى بالعجل الذهبى ففتنوا به وعبدوه وقالوا : « هذا الهنا واله موسى » •

ومن قبل الميلاد ، كانت الشريعة الموسوية قد حرفت وزيفت ، وجردت من صفتها الدينية ، واستبدل بهـــا اليهود شريعـــة عنصرية على هواهم ، محصورة فى عرقهم وسلالتهم • فصـــارت الديانة تنتمى اليهم ولا ينتمون هم اليها على نحو ما ينتمى المسيحيون الى الشريعة المسيحية والمسلمون الى دين الاسلام ، لا يتميزون فى هذا الانتمــاء الدينى بعرق أو عنصر أو ســلالة أو جنس •

ولا يعرف تاريخ البشرية منذ كان ، دينا ينتمى الى عنصر وسلالة ، غير هذه اليهودية التى حجبت الموسوية وعطلتها ، وفرض بنو اسرائيل على الدنيا والتاريخ ، ألا يعرفا الموسوية الا باسم اليهــودية منتمية اليهم ومعرفة بهم ، وهم الذين مازالوا بها يحرفونها ويخلطون ما استبقوا منها بشروح أحبارهم تأويلات علمائهم وتعاليم حكماء صهيون ، حتى صبوا الديانة فى قالب يهودى محض • وانحصرت اليهودية فى عنصرهم وسلالاتهم ، على حين وســـعت المسيحية ووسع الاسلام شتى العناصر والسلالات والعروق والاجناس •••

●●●

بهــذا الخلط بين اليهودية والموسوية ، أتينـا من حرصـنا على تجنب المســاس باليهودية ، اتقــاء الوقوع فى المحظور من التفــرقة بين رســل الله والتمييز بين عناصر البشر •والتفرقة بين اليهودية كنحلة وعنصر نعاديهمــا وبين الانسان اليهودى الذى يجب تحريره من اليهودية كعقيدة اغتصاب ورده الى النزعة الانسانية للاديان السماوية ومنها الموسوية •

والذى ينبغى أن ندركه تماما ، هو التفرقة بين الموسوية دينا واليهودية نحلة وعنصرا • ومن ثم يسقط عنا الحرج الذى نحــــاذره ونتقيه ، فلا نكون فى حاجة الى تأكيــد احترامنا للموسوية واقرارنا بنبوة موسى عليه الســلام وتصديقنا لما أبلغ من رســالة ربه ،ونحن نتلو من كتاب الاسلام هــذه الآيات المحكمات :

« نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والانجيل * من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان .. » (آل عمران ٢ : ٣)

« آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير » (البقرة ٢٨٥)

وانما هم الذين عقوا الديانة الموسوية وعطلوها باليهودية العنصرية ، وزيفوا رسالة موسى عليه السلام وكذبوا به وبسائر رسل الله اليهم ، فباءت عصابتهم من قديم بغضب من الله ولعنة من رسله عليهم السلام :

« .. وفى جميع أرجاسك وفواحشك لم تذكرى أيام صباك. واذا كنت لم تشبعى زنيت مع بنى آشور ولم تشبعى . فلذلك اقضى عليك بما يقضى به على الفاسقات وسافكات الدماء » (حزقيال ١٦)

« خيوطهم لا تصير ثوبا ولا يكتسون بأعمالهم . أعمالهم اثم ، وفعل الظلم فى أيديهم ، أرجلهم الى الشر تجرى وتسرع الى سفك الدم الزكى . أفكارهم أفكار اثم . فى طرقهم اغتصاب وسحق . طريق السلام لم يعرفوه وليس فى مسالكهم عدل . جعلوا لانفسهم سبلا معوجة ، كل من يسير فيها لا يعرف سلاما » (أشعيا ٥٩)

والقرآن الكريم الذى قرر من أصول العقيدة الاسلامية وجوب التصديق بكل كتب الله تعالى ورسله لا نفرق بين أحد منهم ، أراد لأمته الاعتبار بما حاق ببنى اسرائيل من عاقبة بغيهم وفحش جرائمهم :

« وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ، ذلك بانهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » (البقرة ٦١)

« ومنهم اميـون لا يعلمون الكتــاب الا امانى وان هم الا يظنون * فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هــذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ، فويل لهم مما كتبت ايديهم وويل لهم مما يكسبون » (البقرة ٧٨ : ٧٩)

« ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعـده بالرسل وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ، أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقـا كذبتم وفريقــا تقتلون * وقالوا قلوبنا غلف ، بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون »
(البقرة ٨٦ : ٨٨)

« لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصـوا وكانوا يعتدون * كانوا لا يتنـاهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون » (المائدة ٧٨ : ٧٩)

والاسلام الذى فرض على أمته التصديق بالتوراة شهد كتابه الكريم على الــذين هادوا بأنهم هم الذين عقـــوا التوراة وعطلوها ، وصدقت فيهم الآية المحكمة :

« مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمــار يحمل أسفارا ، بئس مثل القوم الــذين كذبوا بآيات الله ، والله لا يهدى القوم الظالمين » .

●●●

وبعـــد ....

فهل كان التاريخ الدينى فيما وعى من جرائم الذين هادوا ، يعرف فيهم حملة الديانة الموسوية ؟

أو كان علماء الاجناس ينظرون فيما تأصل فى سلالة اليهـود من خبث وشر ، الى أهل كتاب ينتمون الى الموسوية ويتبعون التوراة ؟

لقد حاول « جوستاف لوبون » في دراسته للعروق البشرية متميـــزة بخصائص سجاياها ووراثتها الخلقية ، أن يلتمس عذرا لليهود بمـــا تأصل فيهم من غرائز منحطة توارثتها أجيالهم على مر القرون ، فقال فيما قال ، مما نقلنا من كتابه (حضارة العرب) :

[ولا جرم أن الشبه قليل بين العربى ـ فى مروءته وشـجاعته وكرمه ونخوته ـ واليهودى الذى عرف منذ قرون بالنفاق والجبن والبخل ، وأن من الاهانة للعربى أن يقاس باليهودى . ولكن لا ننسى أن طرق الحياة الخـاصة التى خضع اليهود لحكمها منذ قرون كثيرة ، هى التى أنشأت منهم عرقا ذليلا غير محترم . وعندى أن كل أمة تكون عرضة لمثل ما أصاب اليهود ، ولاتعرف عملا لها غير التجارة والربا ، وتحتقر فى كل مكان ، وتنتقل اليها تلك الغرائز المنحطة بالوراثة المتتابعة (على امتداد عشرين قرنا) فتتأصل فيها ، تصـير الى ما صار اليه اليهود لا محالة] ص ٨٤ .

فهل يصدق عليهم مثل هذا العذر فى قديم الزمان ؟ أو هى طبيعة فيهم بشاهد من قوله فى كتابه (اليهود فى تاريخ الحضارة الأولى) :

[وبقى بنو اسرائيل حتى على عهد ملوكهم ـ فى التاريخ القديم ـ أفاقين سفاحين جفاة غلاظا ، خالين من الفكر كانعامهم التى يحرسونها]

كلا ، لم يكن التاريخ الدينى والحضارى للانسان ، يعرف فيهم أصحاب شريعة دينيـة ، ولا كانت الأجيـال من شعوب البشرية فى مقاومتهـا للشر

اليهودى على اختلاف أجناسها وادبانها وتباعد أوطانها وازمانها ، تنظر فيهم قط الى أهــل ملة ودين ، لنتصور أن عالم اليوم يقــدر لنا تسامحنا مع يهود العصر ، ويبــارك اعتــرافنا بحقهم ، ان هم تخلوا عن اسم دولتهم الطــارئة اسرائيل ، فى أن يعيشوا فى سلام آمنين مع عرب فلسطين ، فى دولة غيـــر عنصرية باسم فلسطين التى لم تكن تعرف من هؤلاء اليهود ، الى أوائل القرن العشرين ، سوى بضــعة ألوف ليسوا بحيث يكفون لاسكان قرية واحــدة من قراها ، أو حى من أحياء مدينة صغيرة من مدنها !

فهلا تلونا آية الله فينا وفيهم ، من القرآن الكريم كتاب ديننا ومنهـــاج شريعتنا :

« لا ينهـــاكم الله عن الــذين لم يقاتلوكم فى الــدين ولم يخــرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحــب المقسطين ❊ انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين واخرجوكم من دياركم وظــاهروا على اخــراجكم أن تولوهم ، ومــن يتولهم فاولئك هم الظالمون »

صدق الله العظيم ·

فهل قد بلغت ؟ اللهم فاشهد ··

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية ٣٥٥٤

دار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (القاهرة)
ت ٢٢٠٧٩٠

